صرخة الفقراء



هلدر كمارة

تأليف : روفائيل خزام اليسوعي

سلسلة " الايمان والحياة "

- ١١ -

صرخة الفقراء

(هلدر كمارة)

تأليف

روفائيل خزام اليسوعي

١٩٩٢

المقدمـــــة

فى سنة ١٩٦٧ ، عرض أحد أصدقاء الأسقف هلدر كمارة عليه أن يحرّر كتابا عن أعمال صديقه رسول السلام . فأجاب الأسقف على هذا العرض اللطيف قائلا : " انتظر موتى قبل أن تكتب سيرتى . فيتخيّل الىّ أنّ مطالعة سيرة حياتي وأنا حىّ تجعلنى أشعر بأنىّ حاضر فى زمن ازاحة الستار عن تمثالى ، أرجو أن تعفينى من هذا الازعاج " . ثمّ انتهى الأمر بكمارة ، الذى كان حينذاك رئيساً لأساقفة ريسيف ، فى البرازيل ، أن اقتنع بأنّ الكتاب الذى سيتكلم عن أعماله فى وطنه لن يفيد سمعته أكثر ممّا يساعد على " ترويج الأفكار الايجابيّة السليمة". فظهر الكتاب تحت عنوان : " السيد هلدر كمارة ، أو عنف رجل مسالم " .

وفى سنة ١٩٨٧ ، استأذن كاتب فرنسى الأسقف بتحرير كتاب عن حياته . وجاء جواب الأسقف على الفور بالرفض . ولكنّ الكاتب ألحّ فى الطلب حتّى أقنع السيّد هلدر كمارة بأن شهادة حياته وأعماله ضرورية ومفيدة وأنه حان أوانها . فرد على الكاتب الفرنسى قائلاً : "فلا مانع ، ولكن أرجو أن تعلم أنّ أصدقائى وكلّ من يعرفوننى قد بالغوا كثيرا فى هباتى وأشغالى وأعمالى . وأرجو ألاّ تبالغ مثلهم .

والحقّ إنّه يوجد أشخاص غير قليلين مثل هلدر كمارة فى العالم ، يضّحون بحياتهم من أجل إخوانهم وأخواتهم . إلا أنّ دعوة بعضهم دعوة نبوية ، ولهم هبات خاصّة تتناسب مع هذه الدعوة . وها هو الأسقف هلدر كمارة ، الذى مدّه الله بهبة الاتّصال الحسن والسريع بالآخرين ، اتّصالاً سهلاً وعميقاً ، لأنّه شبه نبىّ ، وكان فى الوقت نفسه خطيباً وممثلاً وشاعراً ، يكسب الناس ويقنعهم بضرورة الرأفة واللين ، وله حاسّة الحركة والكلمة ، والأمثلة والفكاهة ، وتغمر كلّ هذا بادرةُ اللطف البرازيليّة . وقد وفرت له هذه الحسنات كلّ وسائل النجاح فتطفو على السطح أعمق المعتقدات التى تسكنه والتى - لحسن الحظ - تناسب مطامح ومتطلبات زمننا . ولنا أن نسأل ، من هذا الشخص ؟

هذا الشخص هو صوت من ليس لهم صوت ، ومحامى الدول النامية فى زمن تفصل فيه هّوة عميقة بين بلاد الرخاء واليسر وبلاد الفقر والبؤس .

لقد صمد هلدر كمارة فى وجه الحكم المستبد وعرض حياته للخطر ورفض رفضاً مطلقاً ألوان التعذيب التى أصبحت نظام حكم فى نحو خمسين بلدا حينذاك .

ولم يكن حصول هلدر كمارة على جائزة السلام الشعبية إلا نتيجة لاستمراره فى التنديد بسباق التسلّح وبيع الأسلحة اللذين يغذّيان كل أنواع النزاع بين الشعوب .

كان هلدر كمارة الرمز الحيّ لعدم العنف الذي يدعو إليه الانجيل ، والذي قال ڤالنسا البولاندي ..." إنّه سيكون " سلاح القرن الواحد والعشرين " والذي سمح في الفلبّين لشعب كامل ، عاري الأيدي ، أن يوقف دبّابات الجيش وأن " يضع القدير عن عرشه " .

ويؤكد هلدر كمارة بوصفه رجل دين احتياج الكنيسة إلى تهدئة وتعجيل معا : لأنّه يجب أن يكون تحرير الانسان روحيًا وماديًا وأن يغذي كفاح تحريره بالصلاة والتأمّل .

أجل ، لا شكّ في أنّ هلدر كمارة شبه نبيّ في عصرنا .

نبذة عن تاريخ أمريكا اللاتينيّة

لا يتّسع لنا المجال هنا لتقديم تاريخ أمريكا اللاتينيّة بالتفصيل ، فنكتفى بالتركيز على جذوره الأولى :

منذ أكثر من أربعة قرون كان للكنيسة الكاثوليكيّة دور رئيسى فى تاريخ " أمريكا اللاتينيّة " وفى إعلان بشرى الخلاص لها ، وذلك من خلال الوسائل الأسبانيّة والبرتغاليّة . إنّ التاريخ العنيف لاستعمار أمريكا اللاتينيّة ، الذى لعبت فيه الكنيسة الكاثوليكيّة دوراً أساسيًا له أهميّة قصوى عند أى باحث فى التفكير اللاهوتى عن التحرير فى أمريكا اللاتينيّة .

لقد شهد القرن السادس عشر توسّعا سريعاً فى الارساليّات المسيحيّة بسبب تزايد سيطرة أسبانيا والبرتغال على الأرض فى هذه المنطقة .

يقول أحد الكتّاب : " عندما قامت حروب الاستقلال فى القرن التاسع عشر كانت الكنيسة هي أكبر مالك للأرض وفى نفس الوقت أكثر القوى المقاومة للتغيير فى القارة كلّها .

إنّ الاحتلال الأسباني والبرتغالى لأمريكا اللاتينيّة لم يؤدّ إلى عصر ذهبى فى معاملة السكان الأصليين ، وسبّب وجود ظروف موضوعية أدّت الى ظهور شهداء وأنبياء ينظر اليهم اليوم على أنّهم أجداد وآباء حركة "لاهوت التحرير " الذى نشأ

فى أمريكا اللاتينيّة . ومن أمثال هؤلاء الأجداد :

" بارتولومى دى لاس كساس " الذى أعطى الحرّية لعبيده الأفريقيّين وقرّر أن يمارس التبشير بالطرق السلميّة بين السكّان الأصليّين ، واستحقّ أن تطلق عليه السلطة المدنيّة والكنسيّة لقب " المدافع عن الهنود " . وقد توفّى عام ١٥٦٦ ، ويعتبره الكثيرون اليوم مؤسس" لاهوت التحرير " فى أمريكا اللاتينيّة .

وهناك أيضا أسقف نيكارجوا فى سنة ١٥٤٠ ، " أنطونيو فالدوفيزو ، الذى حاول اقناع السلطة الأسبانيّة بأن توقف المعاملة الوحشيّة للسكان الأصليّين ، وقد قتل لهذا السبب .

وفى القرن العشرين ، ونحن قرب نهايته ، تبدو الفروق بين الطبقات شاسعة فى المجتمع الواحد ، ونتائج تبعيّة شعوب أمريكا اللاتينيّة للدول الغنيّة ، وخاصة الولايات المتّحدة ، فادحة . وهذا يؤدّى بدوره لوضع اجتماعى متوتّر يتيح ظرفا موضوعيًا لنمو الوعى لدى الطبقات المظلومة ويزيد الرغبة فى التخلّص من هذه الأوضاع الجائرة . فيصبح من المحال الاكتفاء بتصريحات كنسيّة عامّة عن المحبّة والاخاء فى الحقل السياسى والاجتماعى ، بل يصبح من المحال أيضا بقاء الكنيسة فوق أشكال التعارض والظلم وصور الكفاح الشعبى .

وفى هذا الصدد يقول " چوتييريز " : " إن المحبّة الانجيليّة تفرض على الكنيسة الانحياز لجانب التحرّر من جميع ضروب الاضطهاد : إن السبيل الوحيد أمام الكنيسة لقطع صلتها بالنظام الحالى هو أن تفضح الظلم الفادح الذى يستند إليـــه

هذا النظام . "

أدّى هذا الموقف المتوتّر المليء بالحركة الخلّاقة - والرغبة العارمة فى تغيير االبنية القديمة بأخرى جديدة تتناسب مع متطلبات الطبقات الشعبيّة - إلى ابداع شكل أصيل من أشكال النضال . ويضاف إلى ذلك حدثان على جانب كبير من الأهمّية ، نقصد بهما " المجمع الفاتيكانى الثانى " و " مؤتمر مدينة مدلّلين .

أمّا الأوّل ، وهو " المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى " فلا يخفى على أحد التجديد واشعاع الحياة اللذان أشاعهما فى فكر الكنيسة ، كما أوحي به فى الوثيقة " فرح ورجاء " الى جانب الرسائل البابويّة السابقة واللاحقة للمجمع ، وهى ، على سبيل المثال لا الحصر : " أمّ ومعلّمة " للبابا يوحنّا الثالث والعشرين وفى " تقدّم الشعوب وارتقائها " للبابا بولس السادس . **أمّا الثانى** ، هو " مؤتمر مدلّلين " وهو المؤتمر العامّ لأساقفة أمريكا اللاتينيّة المنعقد فى " مدلّلين " في جمهورية كولومبيا ، سنة ١٩٦٨ ، ويقولون عنه انّه : " ڤاتيكان ثانى أمريكا اللاتينيّة . ويقول Gustavo Gutierrez : " لم يكن من الممكن أن يوجد مؤتمر مدلّلين دون ڤاتيكان ثانى ودون البابا يوحّنا الثالث والعشرين . "

إنّ أهمّ انجازات مدلّلين أنّه ركّز الانتباه على وضع آمريكا اللاتينيّة ، وخاصة الانسان على القهر وظلم الانسان . فقد كان شعار المؤتمر : الكنيسة فى الحاضر : تحويل لأمريكا اللاتينيّة فى ضوء المجمع . فقد تمّ إصدار ستّ عشرة وثيقة تتراوح فى موضوعاتها بين العدالة والسلام والتعليم والشباب إلى الليتورجيّا والحركات العلمانيّة وفقر الكنيسة . ولذا يبدو جليّا ، عند قراءة هذه الوثائق ، أن أغلبيّة

الـ ١٤٥ كاردينالا وأسقفا وكاهنا الذين حضروا هذا المؤتمر قد تأثّروا بصورة ايجابيّة وعميقة "بالمجمع الفاتيكاني الثانى " . ففى مدللين ، كان قادة الكنيسة قد عزموا على أن يوضّحوا بمنتهى القوة وبعبارات لا لبس فيها دور الكنيسة فى مواجهة مشاكل المجتمع السياسيّة والاجتماعيّة التى عرفوها من مصدرها الأصلى .

لابدّ هنا من الالحاح فى أنّ لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينيّة - على وجه الخصوص - لم يكن له أن ينشأ لولا " مجموعات القاعدة الكنسيّة " . ورغم أهمية المجمع الفاتيكانى الثانى ومدللين ، كعوامل مشجعة ، فانّهما لم يصنعا لاهوت التحرير ، الذى انبثق من حياة المقهورين والفقراء ، وبصفة خاصّة من " مجموعات القاعدة الكنسيّة " . وكلّ مجموعة كانت مكّونة من عدد قليل من أشخاص مظلومين يحاولون ربط قناعاتهم المسيحيّة بحياتهم اليوميّة . والمجموعات الصغيرة ، خاصّة فى المناطق الريفيّة وأطراف المدن ، تكونت بواسطة مسيحيّين بسطاء جمعوا بين إيمانهم ومسئوليتهم حتّى يجعلوا المسيح متجسّدا فى حياتهم .

وقد تكونت شبكة من " مجموعات القاعدة " غطّت أمريكا اللاتينيّة بأسرها . ففى نهاية السبعينات ، كان فى البرازيل وحده ما يقرب من ثمانين ألف مجموعة . - وأتت مجموعات القاعدة مكان ولادة ونمو " لاهوت التحرير " لأنها تمثّل " عمل الفقراء " حيث لاهوت التحير ليس مجرّد أفكار . ويستعمل كثير من هذه المجموعات طريقة " باولو فريرى " الذى أدخل " التوعية " كعملية تربويّة يعى بها الناس أهميّة دمج عقيدتهم الايمانيّة بحياتهم الاجتماعيّة والسياسيّة اليوميّة .

وللبابا بولس السادس حديث عن هذه المجموعات يقول فيه ما معناه أنّ بين هذه المجموعات فروقا كثيرة بحسب المناطق ، وأنّه يوجد أحيانا مجموعات مختلفة فى منطقة واحدة . ففى بعض المناطق تزدهر هذه المجموعات داخل الكنيسة متضامنة ، تتغذّى ظروف حياتها من تعاليمها ، وترتبط برعاتها ، وهى تبحث عن بعد إنسانى ، من الصعب أن تقدّمه المجموعات الكنسيّة الكبيرة ، خاصة فى المدن الكبرى . وهذه المجموعات تجمع أناسا يضمّهم الكفاح من أجل العدالة ومساعدة المحرومين ، وتجمع أحيانا مسيحيّين فى أماكن تعانى من نقص الكهنة ، ويجرى ذلك ضمن المجموعات الكنسيّة الكبرى ، وخاصة فى الكنائس المحلّية .

وفى مناطق أخرى تجتمع مجموعات بروح انتقاد عنيف للكنيسة التى يتّهمونها بأنّها كنيسة " مؤسسة " . وتكون هذه المجموعات متحرّرة من كلّ البنى وتستلهم الانجيل فقط . ولذا ، ليس من النادر أن تصبح ضحيّة لاختيار سياسى أو ضحيّة تيّار أو نظام أو حزب ، لدرجة أنّها تكون أداة فى يده .

الفصل الأول

ابن القرية البرازيليّة فورتليزة

كانت مدينة " فورتليزة " قلعة برتغاليّة قديمة فى القرن السابع عشر ، وأصبحت اليوم عاصمة " سيارا " فى مقاطعة شمال شرق البرازيل . هل يطلق فيما بعد على أحد شوارعها أو ميادينها اسم " هلدر كمارة " ؟ لا ندرى . ولكن ما نعرفه هو أنّ هلدر كمارة ، الذى أصبح رسول الفقراء المشهور ، ولد فى فورتليزة يوم ٧ فبراير سنة ١٩٠٩ . وكانت والدته تريد أن تسمّيه " خوسيه " ، ولكنّ والده ، وهو يتصفّح القاموس ، وقع صدفة على اسم أعجبه وهو " هلدر " ، اسم ميناء صغير فى شمال هولندا ، مشهور بصيد السمك بالقرب من ساحله . وفعلا ، سمّى الصبيّ بهذا الاسم . ويقال إنّ الهولنديّين يصيحون أحيانا قائلين : " يا لها من سماء هلدر " عندما تكون السماء صافية ، بدون غيوم . ولكن ، لم يتوقّع أبو هلدر أنّ هذا الاسم ، الغريب فى البرازيل ، سيكون بشير خير لهذا الطفل ، الذى أصبح فيما بعد رسول " الصفاء " بين الناس .

ولكن ، فى الواقع ، كان الأفق مظلما فى منزل أسرة كمارة : لأن الوالد كان كاتبا فى مؤسّسة " بوريس " ، وهى شركة تجاريّة لا يكاد يكسب فيها قوت عائلته ، فكان ينقصهم المال أحيانا .

يقول هلدر : " وحينذاك ، كانت أمّنا تجمعنا نحن الأطفال وتعلن لنا : " سوف نضطرّ الى حذف شيء من طعامنا : يمكننا مثلا أن نستغنى عن الزبدة أو عن الفاكهة . وهكذا كانت تشركنا فى القرار ." إنّ أمّنا ولدت فى وسط مقاطعة الشمال الشرقى خلال جفاف سنة ١٨٧٧ الشديد ، واضطرّت عائلتها أن تهرب الى فورتليزة لتنجو من الموت جوعاً.

ويتابع هلدر : " أنجبت أمى ثلاثة عشر طفلا بقى منهم ثمانية ، ومات الخمسة الباقو ن فى سن الطفولة : حيث قضت عليهم الحمى فى تسعة وعشرين يوما ، ولولا وصول اللقاح فى اليوم الثلاثين لكنت لقيت أنا أيضا نفس المصير . "

مدرسة فى المنزل

أوّل مدرسة لهلدر كانت منزل أبويه . فلم تكن فى عصره مدارس للأطفال فى القرية التى ولد فيها . فكان مصير عدد لا بأس به من الأطفال أن يظلّوا أميّين . عندما وصلت راهبات القدّيس منصور دى بول من فرنسا الى فورتليزة ، كان أوّل طلب وجّهه الشعب إليهنّ هو أن يفتحن فصلاً . وحتّى تعالج الدولة مؤقّتا نقص معاهد الدراسة ، كانت تعطى المدرّسين غير الرسميّين معونة خاصّة تسمح لهم بأن يحصلوا على منزل واسع بعض الشىء ليدرسّوا فيه .

ويتابع هلدر: " هكذا كانت والدتى ، الحاصلة فى شبابها على شهادة من دار المعلمين ، تجمع أولاد الحىّ لتعلمهم فى الجناح الخارجى من البيت ، نظرا لأنّ

الجناح الداخلى كان مخصّصا للعائلة . وكانت مربّية ممتازة ، فقد علّمتنى ليس فقط اللغة البرتغاليّة ومبادىء الرياضيّات والجغرافيا والتاريخ ، ولكن أعطتنى أيضا دروسا فى طريقة الحياة مع انفتاح ذهن نادر فى ذلك العصر . ففى أحد الأيام - وكنت فى السادسة من عمرى - قالت لى وهى تظهر لى وجهها : " يا بنىّ ، سوف تقابل فى حياتك عدداً كبيراً من الناس يقولون لك إنّ الوجه هو خلق الله الحقيقى " . ثمّ ، مشيرة الى صدرها ، قالت : " هنا ، لا نعرف بالضبط ... " . ومدّت حركة يدها إلى أسفل وقالت : " هناك ، يقال إنّه ميدان الشيطان ، ولكن لا ، يا بنىّ ، من الرأس الى الأرجل ، كلّ شىء خلقه الله " . وكان هذا درسا عظيما فى عصر يلقّن فيه أنّ كل شىء كان شراً وسبب خطيئة ، وخاصّة الجنس .

" فى نظر والدتى ، اذا وجد شرّ فى العالم ، ووجد أشخاص أشرار ، فهذا يرجع خاصّة الى الضعف البشرى . وكانت تقول لى : " عندما يظهر لك أن شخصا شرّير ، فلو اقتربت منه وحاولت أن تعرفه من الباطن ، لوصلت إلى اكتشاف أنّ هذا الشرّ هو فى الغالب ضعف . فالمسيح نفسه قال على الصليب عن جلاّديه : " يا أبت ، اغفر لهم ، لأنّهم لا يدركون ما يفعلون " . (لوقا ٢٣ : ٣٤) .

وكون هلدر تلميذ والدته لم يسهّل له التلمذة : فكانت أمّه تطالبه بأكثر ممّا تطالب به غيره ، قائلة له : " لابدّ من أن تعطى المثل لغيرك " . وحدث ذات يوم أنّها طالبتنى بما يفوق قواى فى الواقع ، فبكيت . فذهبت بى خارج الفصل إلى المنزل . وفكّرت أنا فى أنّى للمرّة الأولى سوف أذوق الضرب . ولكنّها قالت لى : سامحنى يا ولدى ، إنّى طالبتك بما يفوق قواك . " - " أعترف بخطئى وأطلب

وأطلب السماح ، يا له من درس عظيم فى التواضع ! "

كان هلدر ينمو ويكبر ، فعهدت به أمّه الى معلّمة أخرى فى المدينة لتكملة تكوينه . فيقول : " حظيت بمعلّمة بارعة ، ولكنّها لا تعرف التدريس الا بموجب بعض .. مثيرات ، خاصّة باستعمال العصا . - فى يوم السبت كانت تجمع الأولاد لجلسة تأديب متبادل . كان على أحدنا أن يطرح سؤالا على زميل له . وإذا غابَ الجواب أو كان خاطئاً ، وجب على من طرح السؤال أن يضرب زميله . ففى مرّة ، لمّا عجز عن الجواب الزميل الذى طرحت عليه سؤالا ، قالت لى المعلّمة :

إنّك تعلم ما عليك أن تفعله .

فأجبت : عفوا يا سيّدتى ، أنا غير كفء أن أضرب أحدا .

فقالت لى : إذن سوف تُضرب أنت .

فأجبت : أفضّل ذلك ألف مرّة .

وعليه ، أوقفت المعلّمة الحصّة لأنّ ، فى نظرها ، كان عصيانى فضيحة . فأتت تزور والدتى ، مصمّمة أن تطردنى من المدرسة . ثمّ اجتمعت السيدتان فى حجرة مدّة ساعة كاملة . وبعد انصراف المعلّمة قالت لى والدتى : " إنّها تقبل أن تبقيك فى المدرسة ، وسوف تتوقّف عن الضرب بالعصا . "

والد هلدر

كان والد هلد يعارض تدخّل الاكليروس فى الشئون العامّة ، وذلك لأنّه لم

كان يحوى معبدا عائليا صغيرا ، بصليب كبير وتمثال للعذراء وصورة للقدّيس فرنسيس الأسيزى . - أمام هذا المعبد ، كان الوالد يجمع مساء كلّ يوم من أيّام شهر مايو ، المكرّس للعذراء مريم ، كلّ أفراد عائلته لتلاوة الورديّة باللغة اللاتينيّة ويضيف اليها طلبة مريم وترنيمة اكراما لها . هكذا ، فى نظر هذا الرجل الذى لم يقم بمراسيم ديانته ، وكان يلبس فى اصبعه خاتما مدموغا برمز الماسونيّة ، لم يكن الله فى اعتقاده مجرّد " المهندس الكبير " كما يسمّيه الماسونيّون .

ويقول هلدر : " كانت رغبتى فى الكهنوت منذ الصغر وعندما بُحْتُ فى حضور أبى برغبتى أن أكون كاهنا ، سألنى ، رغم أنّه لا يؤيّد المشروع ، : " هل تعرف واجب من يريد أن يكون كاهنا ؟ أجبته : " أن يرفض كلّ أنانية " . و " ما هى الافخارستيّا ؟ " - " الافخارستيّا هى المسيح نفسه ، والأيدى التى تلمس المسيح مباشرة لا يمكنها أن تتنجّس بالبخل ، الذى لابدّ من أن يتجنّبه الكاهن ، وأن تكون يداه دائما مفتوحة لخدمة الآخرين " . بعدما انتهى أبى من كلامه ، قلت له بتأثّر : " أودّ أن أصبح كاهنا بهذه الصفات عينها " . فنظر اليه أبوه وتابع بكلّ بساطة : " اذن ، فلتكن معك بركة الله ... "

" هذه هى الذكرى التى احتفظت بها من لقاءاتى مع أبى : كان رجلاً نزيهاً ، سخياً وعادلاً . علّمنى كيف أمكنه أن يكون طيّبا رغم أنه لم يكن يتردّد على القدّاس ، ولاحظت طوال حياتى أنّه يمكن لشخص أن يكون كاثوليكياً ممارسا لدينه ويظلّ أنانياً ."

وفيما بعد ، ارتدّ أبى ، أعلن أنّه شرع فى ممارسة الدين . ولكن ، عندما كانت إحدى أخواتى على وشك أن تصبح راهبة ، رفض أن ينكر علنا آراء الماسونيّة ، وذلك حسب متطلبات زمنه . فقال لأختى : " يا ابنتى ، إنّى أقبل أن أتقدّم للأسرار وأن أتلو قانون الإيمان ، ولكن لا يمكننى أن أنكر علنا مبادىء الماسونيّة ، حيث لم يطلب منّى قط أن أكون ضدّ الله أو ضدّ الكنيسة . لو أنكرت هذه المبادىء لخنت أصدقائى وذكرى أبى وكل أسرتى.. " ولحسن الحظّ وجد كاهن متفاهم قال لأبى : " لا تعلن شيئا ضدّ الماسونيّة ، لكن اتل فقط قانون إيمانك . "

ويتابع هلدر " سوف يعطينى الله النعمة أن أرى أبى يترك الحياة بين يدىّ . كان قد دهمه مرض الموت وهو ينزل من السلّم ، وكأنّى أسمعه بعد يتمتم ، واضعا يده على قلبه : " لتكن إرادة الله ... لتكن إرادة الله . " وفجأة ، وقفت الكلمات على شفتيه : " لتكن ... " وسقط من بين يدىّ . طلبت الطبيب وأعطيت أبى الأسرار الأخيرة . ظل طوال الليل فاقد الوعى . وفي الصباح ، حوالى الساعة الثامنة ، فتح عينيه وقال : " يا بنىّ ، قل ما حدث لى ، قل لى الحقيقة ، لا تخف عنّى شيئا ... " فشرحت له ما حدث ، وحينذاك ، بكلّ هدوء قال : " كان الله قد أعطانى الحياة ، وهو يستردّها الآن ... ليعطينى غيرها . " وكانت هذه كلماته الأخيرة ! " .

لقد كان هلدر كمارة مدينا لأبيه ، ولو جزئيًا ، بميله نحو المسرح . فهو الذى كان ينظّم شبه ليترجيّات مهيبة . كان والده ناقدمسرح للصحافة المحليّة ، فكان يذهب أحيانا بابنه هلدر الى عروض المسرحيّات . ومن جهة أخرى ، كان عمّ هلدر ، كارلس كمارة ، مؤلفا مسرحيًا . يقول هلدر : " كنت أرغب فى الذهاب

الى حفلات بروفات مسرحيّاته الأخيرة . وكان عمّى نفسه المخرج وهو الذى يختار الممثلين . فكنت أتصور أنّى أشهد عملية خلق ، وكانت تهتزّ لها مشاعرى . "

وكبر الشاب هلدر فى جوّ ناطق بالفرنسيّة ومناصر للفرنسيّين . يقول هلدر : " فى فورتليزة ، كانت تسود اللغة الفرنسيّة وليست الانجليزيّة ، بينما كانت إنجلترا دولة كبرى . فى الغالب وتشعر أمريكا اللاتينيّة بألفة أعظم للبلاد اللاتينيّة ، ولفرنسا بصفة خاصّة ، من ألفتها للعالم الانجلوسكسونى . - كانت عائلاتنا الميسورة تستهلك منتجات فرنسيّة : فكانت مياهها المعدنيّة هى مياه ڤيشى ، ونبيذها الفاخر كان شمبانيا الأرملة كليكوه . وكان صاحب العمل الذى يعمل عنده أبى يتسلّم من فرنسا جرائداً وصحفاً مصوّرة . وأنا كنت أتتبّع بولع تطورات الحرب العالمية ١٩١٤ - ١٩١٨ ، وكنت مناصراً لفرنسا .

و "كان أحد اخوتى ، چيلبير ، ناقدا أدبيًا ، يحصل على كتب برازيليّة وفرنسيّة . وهو الذى أيقظ ذوقى للآداب وأدخلنى فى الأدب الفرنسى . فقرأت تقريبا كلّ مؤلّفات سانت بوڤ ، Sainte - Beuve ، الذى كان فى نظر أخى نموذجاً للنقد الكلاسيكى . وفيما بعد ، فى ريو ، عرفت المرحلة التى أحببت فيها كلوديل Claudel وقرأت له , L'annonce faite à Marie, L'otage Les odes وكانت مرحلة امتزج فيها حبّى لـ Peguy et... de Saint - Exupery وفى مرحلة متأخرة ، التقيت بـ Le Milieu divin et la Messe sur le monde ودهشت بفرح أن أعرف نفسى تلميذ Teilhard de Chardin .

فى الاكليريكيّة

ودخل هلدر كمارة الاكليركيّة الصغرى فى الرابعة عشرة من عمره . ولمّا كان أبواه عاجزين عن دفع نفقات الأكل والسكن ، دفعتها جمعية الدعوات . - وكان هلدر تلميذا بارعا فى اللغة اللاتينيّة والآداب . ولكن حالته فى النظام لم تكن مرضيّة فكان يصعب عليه الصمت فى الأروقة ، لأنّه لا يفهم هذا التدبير . فكان يتكلّم ، فيحصل على درجة منخفضة فى السلوك ويفقد حقّه فى الرجوع الى المنزل مرّة فى الشهر . ولم يقبل أيضا فى فرقة خدّام مريم فكان لابد أن ينتظر دخول الاكليريكيّة الكبرى لتصحيح حالته .

كان هلدر يقول عن معلّميه فى الاكليركيّة الكبرى : " أنا مدين كثيرا لمعلّمى العازريّين ، أبناء القدّيس منصور دى بول . كان أوّل رؤسائى هولنديّا ، واسمه جيلهرم ڤاسن Guilherme Vassen . وفى ذات يوم ، أعلن هذا الرجل ، الذى كنّا نحترمه جميعا ، أنّه سيسافر ليكون مرسلا . وكنت مكلّفا بأن أقدم له كلمة وداع باسم جميع الاكليريكيّين . فقلت : " اذهب ، يا أبت ، إنّ أبناءك ينظرون إليك كما كان أبناء الصليبيّين ينظرون الى آبائهم ... سوف نتبعك بالأعين ، ولكن سنكون معك بالقلب . "

وكان الرئيس الثانى فرنسيًا من مدينة " ليل " واسمه طوبيا ديكويت Tobie Dequidt . كان الناشرون الفرنسيّون يرسلون اليه كتبا ، وكان يسمح لى بفتحها وفصل صفحاتها عن بعضها وقراءتها . وفى ذات يوم ، جاءنى بكتاب كان قد ثبّت بمشبك عدداً من صفحاته وقال لى : " لا تقرأ هذه الصفحات المشبّكة ، إنّها

لاتناسب سنّك . " فقلت : " يا سيّدى ، اسمح لى . فإذا قرأته ووصلت إلى هذه الصفحات ، سوف تشرد مخيّلتى الى أبعد ممّا كتبه المولف . فالأفضل- بعد إذنك - أن أترك الكتاب أو تسمح لي بقرأته كاملاً . وسوف أرجع إليك لنناقش مضمونه . وعليه قبل الرئيس فوراً ما عرضته عليه " .

وحدث حادث آخر : فى الاكليريكيّة الكبرى كان لكلّ طالب طاولة ومكتب مغلق يقفل له مفتاحان ، مفتاح للاكليريكى وآخر للرئيس . وفى صباح يوم ، كنت على وشك أن أفتح مكتبى فقال لى جارى : " يبلغك الرئيس أنّك إذا لاحظت أنّ شيئا ينقص فى مكتبك ، عليك أن تبحث عنه لديه ." وعندما فتحت مكتبى لاحظت غياب كراريس وأوراق شخصيّة . ولكنّى لم أذهب لأطلبها من الرئيس . مرّ أسبوع ، بل أسبوعان ... وفى أحد الأيام قابلنى الرئيس وقال لى : " قلت إنّه يجب عليك أن تأتى لملاقاتى . " فأجبت : " عفوا يا سيّدى ، انّى لم أجرؤ على ذلك لأنّى أظن أنّه قد يشقّ عليك الاعتراف بأنّك أتيت إلى طاولتى ليلاً كسارق لتفتح مكتبى وتأخذ منه أوراقى . لم أرد أن أكبّدك هذا الخزى . "

وبدلاً من أن يغضب ، قال لى هذا الرجل ، الذى كان فضلا عن ذلك بارع الخلق : " أنت على صواب ... أنت على صواب ... ولكن هل تعرف أنّى اكتشفت قصائد شعريّة فى خزانتك ؟ وهذا يشغل البال . لأنّه إن أطلقت لمخيّلتك الحبل على الغارب قد تعرّض كهنوتك للخطر ."

- شيء غريب ، يا سيّدى إنّك تكلّمنى كأنّك شخصيًا لست شاعراً .

- ولكن ، كيف تعرف أنّى شاعر ؟

- هذا واضح : انّ حساسيّتك للطبيعة والفنون ، هى الشعر !

- وهذا بالضبط ما أودّ أن أحميك منه ، لأنّى أعرف بالاختبار كم هو صعب أن نسيطر على مخيّلتنا .
- ولكنّ المخيّلة موهبة من الله ، إنّها تساعدنى على أن أرى الأشياء الجميلة وأن أفهم الخلق .
- ولكن عندى طلب أوجّهه اليك : " حاول ألاّ تكتب قصائد شعريّة حتّى رسامتك الكهنوتيّة " .

فوعدت الرئيس بذلك . كنت أحترم هذا الرجل الذى ، قبل المجمع الڤاتيكانى الثانى ، كان يسمح لطالب فى الاكليريكيّة أن يجادل معه ويقبل أن يعترف بأخطائه . "

ومن الأكيد أنّ الشابّ هلدر كانت له شخصيّة لا بأس بها ، كما تظهره واقعة أخرى حصلت فى سنة ١٩٢٧ :

فى الثامنة عشرة من عمره ، كان فى مرحلة دراسة الفلسفة ولم يصل بعد الى رتبة " قصّ الشعر " (وهى أبسط الدراجات الاكليريكيّة) . وفى دار المعلّمين القائمة فى مدينة فورتليزة ، كانت تدرّس الفلسفة امرأة تلقّن علماً مطبوعا بطابع المادّية . فلمّا اطلّع هلدر على المذكّرات التى يدوّنها تلاميذ هذه المدرّسة أثناء حصصها ، ذهب لمقابلة الرئيس وقال له : " لابدّ من ردّ فعل على هذا التدريس ومساعدة الطلاّب على المعارضة ! ووافق الرئيس على ذلك . وحينذاك ، حرّر الشابّ كمارة مقالا فى الجريدة المحلّية تحت اسم مستعار " ألكودا سيلڤيرة " . وردّت المدرّسة على المقال ، رد هلدر بدوره . واستمرّ الجدال ، ونشبت الحرب

الكلاميّة . وتحمّست المدينة للقضيّة ، وانقسم الناس إلى فريقين : فريق يساند المدرّسة التى تحبّذ الماديّة وفريق يساند الشخص الغامض " ألكودا سيلڤيرة " .

ويقول هلدر : " فى أحد الأيّام ، دعانى النائب الأسقفى ، وهو سيّدنا تازوزة براجا . وكنت فخوراً وأقول فى قرارة نفسى : " لا شكّ فى أنّه يريد أن يهنّئنى " فتقدّمت إلى سيادته ، وكانت مقالاتى معروضة على مكتبه . فسألنى :
" هل أنت حقّا صاحب هذه المقالات ؟
فأجبت فى زهو : " بالطبع يا سيّدى "
فتابع سيادته : " إذن لابدّ أن تعرف أنّ مقال الأمس كان آخر مقال تكتبه " .
فأجبت : " ولكن هذا محال ، يا سيّدى . ألم تقرأ " الحمرنات " التى نشرتها اليوم هذه السيدة في الجريدة ؟ " " ومقالى للغد جاهز ، يمكننى أن أريه لسيادتك . "
فقال: " إنّى أكرّر إنّك نشرت أمس آخر مقال لك . "

فخرجت من مكتبه وأنا تحت تأثير عاصفة تمرّد باطنيّة . كان الشيطان يوحى الىّ " بأن سبب هذا التصرّف هو أنّ النائب الأسقفى أخو زوج المدرّسة التى نحارب أفكارها " . ومررت صدفة آنذاك أمام المعبد ، فدخلته باحثاً عن قليل من الهدوء . ووجدت نفسى أمام صورة للعذراء ، فقلت لها : " يا أمّت ، لن أخرج من هنا قبل أن أتحرّر من التجربة . أشعر بأنّى فى مفترق الطرق : لو دهمتنى الكبرياء لأكاد أفقد دعوتى ، بل ايمانى نفسه ! " ولكنّ العاصفة استمرّت ، فكنت مضطربا ودائم الحركة ، وبقيت ساعة على هذه الحال .

ولكن ، فجأة تذكّرت الجيل اليوم ، وهو الجيل يوم ٢٩ يولية لذكرى عيد القدّيسة مارثا ، التى قال لها يسوع : " مرثا ، مرثا ، تهتمّين بأمور كثيرة وتضطربين بها ، مع أنّ الحاجة الى شىء قليل ، إلى أمر واحد " (لوقا ١٠ :٤٢). وآنذاك تفتّحت عيناى : فهمت أنّ ما كنت أظنّه الدفاع عن الحقيقة كان كبرياء ليس إلاّ . فخرجت من المعبد هادئاً ، سعيداً ومرنماً . وكان زملائى ينتظروننى ، وقد حضّروا مظاهرة ليقاوموا النائب الأسقفى ، دفاعا لحقّى . ولكنّى هدأتهم ... "

" ومنذ ذلك الوقت ، أحصل دائما على أبرز نعم حياتى بمناسبة عيد القدّيسة مارثا أو فى الأيّام التى تتبع هذا العيد . كنت قدّمت للآب شيئا زهيدا فأعاده الىّ مئة ضعفه " .

أخطاء شبيبة

وبعد ثمانى سنوات فى الاكليريكيّة الصغرى والكبرى ، رُسم هلدر كمارة كاهناً يوم ١٥ أغسطس سنة ١٩٣١ ، فى عيد انتقال العذراء إلى السماء ، وكان عمره آنذاك اثنتين وعشرين سنة ونصف . واضطر لذلك أسقفه إلى أن يحصل على إذن خاصّ من روما ، نظرا إلى أنّ سنّ الرسامة الكهنوتيّة هى ٢٤ سنة . وعيّنه رئيس أساقفة بلدته فورتليزة مرشداً للشبّان الجامعيّين ولعمّال المدينة . وكان فوق ذلك مسئولا عن معبد . ومثل كلّ زملائه فى الكهنوت ، لم يكن هلدر مؤهّلاً بالكفاية للعمل الرسولى . يقول : " كان رؤساؤنا يخصّصوننا لخدمة الشعب .

ولكنّهم كانوا يحفظوننا طوال سنيّ التكوين منفصلين عن الشعب ، أى خلال ثمانى سنوات ، بل عشر أو اثنتى عشرة سنة . إلى جانب أنّهم قد أنشأوا اكليريكيّة لفترة الإجازة الصيفيّة لنفس الغرض الذى هو " حمايتنا " من الاتّصال بالشعب . وكان تكويننا يتّسم بسمة " معارضة الاصلاح " : فكنّا مهتمّين بالدفاع عن أنفسنا خاصة : لأنّ كلّ هدف تكويننا الدينى كان الدفاع عن الديانة ضدّ كلّ أنواع الهرطقة القديمة والجديدة ، التى كنّا ندرسها عن ظهر القلب . فعندما خرجت من الاكليريكيّة لم أكن حاصلا الا على فكر بسيط جداً عن القضيّة الاجتماعيّة : كان العالم فى نظرى منقسما الى فريقين متعارضين : الشيوعيّة والرأسماليّة . وكانت الشيوعيّة تعرض علينا كهيئة لا تريد إلاّ القضاء على الديانة وإلغاء الملكيّة الخاصّة ، وتقدم إلينا الرأسماليّة على أنها الهيئة التى تدافع عن النظام المسيحى . وكان هذا يُعدّني للدخول فى معارك على الأقلّ مشكوك فيها .

ويقول هلدر كمارة : " فى سنة ١٩٣٣ ، عندما أنشىء " العمل الكمالى " l'Action intégraliste – وهو ترجمة برازيليّة لفاشيّة موسولينى والهتليريّة وخاصّة نقابيّة سالزار – وجدت نفسى بطريقة طبيعيّة أناصر هذه الفلسفة التى ، بادّعائها أنّها روحانيّة ، كانت تشنّ حربا على الشيوعيّة . وحينما دعانى بلينيو سالجادو Plinio Salgado ، الرئيس البرازيلى " للعمل الكمالى " ، لأكون أمين سرّ عمله لقسم التربية فى " كيارا " الذى هو اقليمى ، لبيت دعوته برضا كامل من طرف أسقفى ، الذى قال لى : " أنا على يقين أنّ كثيرين من الشبّان والعمّال سوف ينتمون الى حركة هذا " العمل " وستكون أنت إذن حاضرا لمساعدتهم . " وفى الواقع ، كان الكثيرون منهم يأتون ، متعشّمين أن يسمعوا فى " الوعظ " الكمالى كلمة رجاء ومحبّة هم متشوقّون اليها . كانوا يرتدون القميص الأخضر

ويؤدّون القسم للرئيس ويطلقون بشجاعة شعارهم : " الله والوطن والأسرة . "

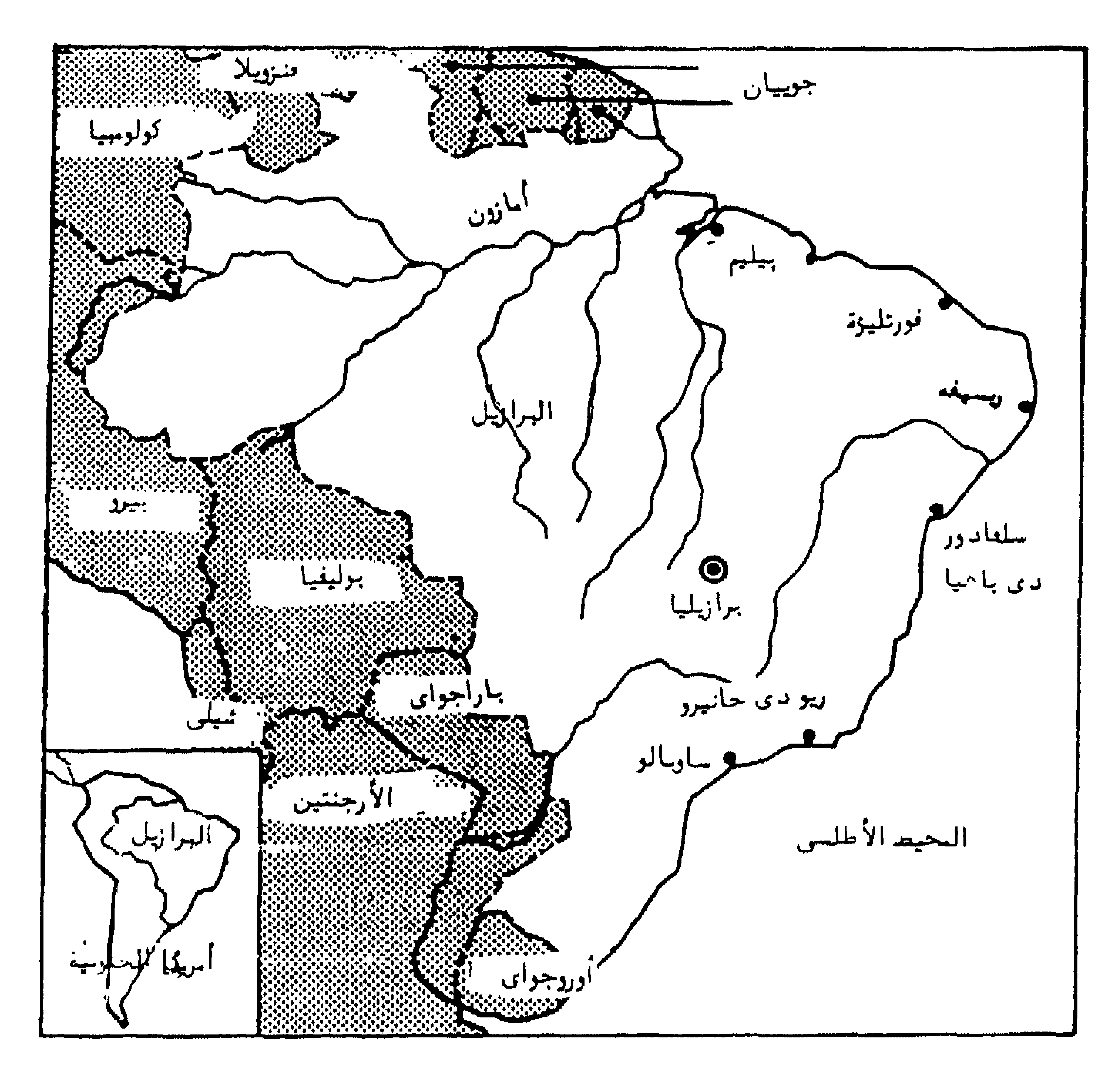
فضلا عن ذلك ، كانت الكنيسة تهتّم كثيرا بالانتخابات التى كان مزمعا أن تقام فى سنة ١٩٣٤ . نظّم رئيس أساقفة ريو دى چانيرو ، الكاردينال ليمه Leme لكلّ البلد الرابطة الانتخابيّة الكاثوليكيّة . وبالرغم من أنّها لم تكن حزبا ، كانت هذه الرابطة تقدّم للمرشّحين برنامجا كانوا مدعوّين أن يتعهّدوا به . وطلب منّي رئيس الأساقفة مانوئيل دا سيلفا جومث [١] الذى كنت من رعاياه ، أن أقوم بأكبر نشاط ممكن فى " الكيريا " لصالح المرشّحين الذين قبلوا برنامج الرابطة . فأطعته . وانتخب جميع المرشّحين الذين وقّعوا بالقبول ولم ينتخب غيرهم . وكانت الحكومة فى غاية الامتنان . ولكن ، فيما بعد ، لمّا تدخلت الحكومة أكثر من اللازم فى سياسة التربية التى كنت مسئولا عنها ، قدّمت استقالتى . فطلبونى حينذاك فى ريو دى چانيرو فى أمانة التربية لخدمة الدولة الاتّحادية (الجمهورية) برمّتها هذه المرّة . وهكذا وصلت إلى العاصمة فى سنة ١٩٣٦ ، وكان عمرى ٢٧ سنة . وسمح الله أن أمكث هناك ٢٨ سنة .

لم تعرف هذه الحقبة من حياة هلدر كمارة إلاّ معرفة تكاد لا تذكر فى أوروبّا .

ورغم نقص تكوينه للعمل الرسولى فى الاكليريكيّة ، رأف الله بحالة هلدر وهداه صراط عمل يشمل خدمة الآخرين اجتماعيّا ودينيّا ، ومهّد له فرصة ذهبيّة لهذه الخدمة .

---

(١) Dom Manuel da Silva Gomes



مساحة البرازيل ٨,٥١١,٩٦٥ كيلومترا مربّعا : حوالي ثماني مرات ونصف مساحة مصر . كان تعداد سكّان البرازيل في سنة ١٩٨٧ م ١٤٢ مليون نسمة .

ولد بطل هذا الكتاب ، واسمه هلدر كمارة ، في البرازيل .

دعوني أكتفي هنا بوضع بعض معالم لتاريخ البرازيل .

في عام ١٥٠٠ اكتشف البرازيل البرتغالي ألڤاريس كابرول .
في عام ١٦٩٦ اكتشف منجم ذهب في هذا البلد .
في عام ١٨٠٨ طرد نابليون الوصيّ علي عرش البرتغال ، فاستوطن في البرازيل.
في عام ١٨١٥ أصبح البرازيل مملكة .
في عام ١٨٢٢ أعلن البرازيل عن استقلاله وأصبح بطرس الأول Pierre 1er إمبراطور البرازيل دستوريًا .
في عام ١٨٨٨ إلغاء الرقّ .
في عام ١٨٨٩ إعلان النظام الجمهوري وإنشاء ولايات البرازيل المتّحدة (٢٣ ولاية) .
من ١٩٣٠ الي ١٩٤٥ ، ثمّ من ١٩٥١ الي ١٩٥٤ ، رئاسة جيتوليو ڤارجاس .
في عام ١٩٦٠ افتتاح برازيليا ، العاصمة الجديدة .
في عام ١٩٦٤ انقلاب عسكري
في عام ١٩٨٤ الرجوع الي نظام حكم الشعب .
في عام ١٩٨٨ إعلان دستور جديد للبلاد .

الفصل الثانى

عمل الأب / هلدر كمارة
ثمانى وعشرين سنة فى ريو دى چانيرو

فى سنة ١٩٥٥ عقد مؤتمر دينىّ لمن يرغب فيه من جميع الدول فى ريو دى چانيرو ، عاصمة البرازيل . وشيّدت الدولة البرازيليّة ، لاستقبال آلاف الحجّاج المزمع حضورهم إلى البرازيل بمناسبة المؤتمر ، مساكن عديدة مؤقّتة بعد ردم مساحة عظيمة من خليج ريو ، ونجحت العمليّة ومهّدت للمؤتمر نجاحاً باهراً . ولكن ، بالقرب من المساكن الفخمة وناطحات السحاب التى يسكنها الأغنياء فى ريو ، كانت هناك آلاف من المساكن الشعبيّة التى يسكنها أفقر الفقراء اللاجئين من الأرياف ، لا يقلّ عددهم عن ستمائة ألف شخص فى حالة فقر وبؤس لا توصف .

وقد زارت هذه المساكن الفقيرة أثناء المؤتمر امرأة فرنسيّة تدعى رينيه ، آتية من ليون (فرنسا) وحررّت ما لاحظته فى جريدة ظهرت فى ليون ، وترجم مقالها إلى لغات مختلفة ووصل إلى مختلف جهات العالم . فأحدث ضجّة خزى وعار ازاء الأغنياء المقيمين فى ريو دى چانيرو بالقرب من المساكين . وكان هؤلاء البؤساء يبحثون عن قوتهم فى صفائح قمامة (زبالة) جيرانهم الأثرياء الذين يتجاهلونهم تماماً .

مختارات من هذا المقال

إننا فى معسكر أكواخ ، كل منها له قصة بؤس :

١) هذا كوخ عالق بخيط : تعفّنت الأوتاد التى تسنده إلى صخرة ، فأصبحت الأسرة التى تسكنه مهدّدة كلّ يوم بالكارثة .

٢) بالقرب من هنا ، أمضت امرأة شابّة كل ليلها تغيّر مكان سرير العائلة الوحيد حتّى لا يبلّل المطر طفلها الرضيع .

٣) فى ذلك الكوخ القذر للغاية الذى تبلغ مساحته بضعة أمتار مربّعة لا غير ، ولدت منذ لحظات السيّدة ميراندة طفلة على كوم من الخرق البالية القذرة هى كلّ سريرها . ولأنّه لم يمكنها أن تنزل فى الغد إلى ساحة السوق لتلتقط بعض الفواكه المصابة بالعطب ، والملقاة تحت الدكاكين ، اضطرّ باقى أولادها أن يصوموا طوال النهار .

والسيّدة رينيه الفرنسيّة ، صاحبة هذا المقال ، اختارت كوخا من أكواخ هؤلاء البؤساء حتّى تسكنه ، ورتّبت فيه مركزا طبيًا بسيطا جدًا لعلاج المرضى .

وفى بعض الأيّام ، كان يبدأ طابور المرضى منذ السابعة صباحا فى انتظار العلاج ، لأنّ معظم سكّان الأكواخ مرضى بأمراض مزمنة : ٩٦٪ منهم مصابون بمرض يسبّبه الهوام (الديدان) ، وأكثرهم مصاب بالتهاب الأمعاء الغليظة أو

السلّ . وغيرهم مصابون بأمراض وبائيّة مثل الجدرى والتيفود .

وأبعد من العلاج الجسدى ، أصبح المركز الطبّى مكانا يأتى اليه كلّ شخص بمشكلته ، وتمثّل أحيانا هذه المشكلة حالة خاصّة بنزاع يقتضى المحاكمة ، فتتحول منضدة الممرّض الى حاجز محكمة : فلا مفرّ من المشاجرات بين جيران فى حالات الاختلاط التى يعيش فيها سكّان الأكواخ ، ولكن عامّة ما يقتضى الصبر على جميع الحالات : فكلّ ضيق جسدى أو روحى ، يفرض حلاً تقدّمه المحبّة . ونحن معشر الأغنياء ، لا نزال مضطرّين ، ازاء عفوية الفقراء التى تهب ثقّتها بطريقة تامّة ، رغم حالات البؤس الهائلة ، إلى الاعتراف بأنّ خجلنا يعظم كلّ يوم لانتمائنا إلى عالم الأثرياء ، عالم الذين أكلوا دائما كفايتهم وناموا على سرير واستفادوا إلى حدّ كبير من القيم الثقافيّة والروحيّة . فتستعجلنا الساعة لاعادة مشاركة أكثر عدالة بين الأغنياء والفقراء .

التغيير الجذرى فى حياة هلدر كمارة : تكريس كلّ حياته لخدمة الفقراء

بمناسبة هذا المؤتمر كان رئيس أساقفة فرنسا قد حضر إلى ريو دى چانيرو ولاحظ التناقض المخجل بين فئتى شعب هذه العاصمة العظيمة ، وانتهز فرصة المؤتمر حتّى يطالب الأسقف هلدر كمارة بترك كلّ مناصبه العالية لاعطاء كلّ اهتمامه للفقراء . سرعان ما قبل هذا الأخير بفرح شديد هذا الطلب وتنازل عن معظم أعماله الهامّة حتّى يكرّس حياته لخدمة المساكين .

كان هدفه ألاّ يندّد بالأغنياء ويوبّخهم ، بل أن يقوم بعمل واقعىّ ومسالم . فبدأ بتصحيح فكرة البلد عن هؤلاء الفقراء ، الذين كانت الاذاعة المحليّة تصفهم بالشرّ والكسل والفسق . ورفع رأسهم بقوله انّهم مسالمون ويعملون بجدّ ونشاط بالرغم من بؤسهم ، ثمّ طلب من كبار المسئولين الدينيّين أن يستخدم الخشب الذى استعمل لبناء المساكن الشعبيّة المؤقّتة للحجّاج فى خليج ريو ، ووزّع هذا الخشب والمال اللازم على البؤساء ، الذين كان أغلبهم عمّالاً ، حتى يبنوا لأنفسهم ولعائلاتهم مساكن لائقة ومتينة . ولمّا كان من المحال أن يبنوا فى نفس الأمكنة التى كانت تأويهم حتى ذلك الحين ، عرض هلدر كمارة على رئيس جمهوريّة البرازيل أن تردم مساحات مائيّة أخرى من الخليج وتعطى للمساكين ليبنوا عليها مساكنهم الجديدة .

وبدأ البناء لصالح أفقر مجموعة من ساكنى الأكواخ فى صلب حىّ غنىّ حتّى تختلط الطبقات الاجتماعيّة ، فتقرّب بين الأوساط المختلفة وتقلّل من صراع الطبقات . - واحتراماً للفقراء كانوا يشيّدون عمارات عديدة شملت سريعا ٩١٠ شقّة ، وصمم هلدر كمارة فى أن يقوم البناء على أوتاد حتّى يصلح المكان الفارغ تحت المنازل لاقامة ملاعب للشباب والأطفال ، نظرا لأنّ عدد سكّان هذا المكان وصل الى أربعة آلاف نسمة ، لا يقلّ عدد القصّر منهم عن ١٨٠٠ طفل وشابّ ، لم تبلغ سنّهم الخامسة عشرة .

وأصبحت مساكن الفقراء هذه " مدينة " ، لها مدرستها وكنيستها وسوقها وأنديتها ومشاغل للحرفيين . - كان كلّ طابق من هذه المساكن يختار مندوبا لمجلس المستأجرين ، الذى يلعب دوراً بمجلس البلديّة . وكانت راهبتان تضمنان

لهذه المدينة خدمة طبّية واجتماعيّة . - وبعد ٢٤ سنة ، وجد هلدر كمارة فى ذلك المكان عمارات عاديّة تحظى بالايجار المألوف . ماذا حصل فى هذه الحقبة الطويلة من الزمن ؟

كنّا توقّعنا أنّه حالما وجدت أسرة فقيرة مسكنا آخر ، لابدّ لنا أن يُهدم كوخها لنتجنّب أن تأتى أسرة غيرها تحل محلّها فى نفس الكوخ ، فنكون قد ساعدنا على زيادة عدد الفقراء فى الأكواخ القديمة . وفى الواقع هذا ما كان يحدث بالفعل : عند خروج أسرة فقيرة من كوخ كانت تحضر أسرة فقيرة أخرى من الأرياف تحلّ محلّها ، بحكم أنّ الأسر الفقيرة يزيد عددها بدلا من أن ينقص . ومن وجهة النظر هذه فقد فشلنا .

ولكنّنا استدركنا الحالة وحصلنا فى عملنا على نتيجة طيّبة . فقد تيقظت مدينة ريو لأسر الفقراء عامّة وشرع المسئولون يهتمّون بها ويعتبرون أنّ هذا من واجبهم . واختار حاكم المدينة طريقة مختلفة عن طريقتنا : فبدلا من أن يأوى الأسر الفقيرة بالقرب من المدينة أو داخلها ، شيّد مساكن بعيداً عنها فى المناطق غير الحضريّة بعد حيث لا يضرّ أحدا وجود الفقراء ، خاصّة أنّ مساكن الأحياء الغنيّة كانت تشكو من التلوّث السكنى . ولم يمسّ هذا الحلّ أىّ فقير بأذى .

بنك العناية الالهيـة

أسّس هلدر كمارة عملاً آخر شعبيًا تماماً ، هو بنك العناية الالهيّة . لا يقرض هذا البنك لاصحاب المال ولكن للذين في وسط اجتماعى متواضع أو فى ضيق مالى . إلى جانب أنّه يساند كلّ أنواع الخدمات : الطبيّة والسكنيّة والتربويّة وخدمة المواصلات والارشاد المهنى والاسعاف القانونى والبطالة (أوجد هذا البنك ١٥٠٠ عمل لأرباب العائلات فى سنة ١٩٦٣) . إنّ بنك العناية الالهيّة قائم على الهبات ليس إلاّ . له حساب فى جميع البنوك الكبيرة ، التى يترك كثير من عملائها الأرباح لحسابه . ويحظى هذا البنك الخاصّ كل سنة بسوق خيريّة يتهافت عليها كلّ أغنياء ريو .

كتب شاهد : " حضرت إحدى الأسواق الخيريّة التى نظمها هلدر كمارة فى سبتمبر ١٩٦٣ على أرض نادى يوخت على شاطىء البحر . نجحت نجاحا باهراً ، إذ استقبلت السوق مائة ألف زائر . وكان فيها ، لمدّة يومين ، ازدحام طريف أمام معروضات أقاليم البرازيل الأربعة عشرة ، إلى جانب واحد وعشرين صفًا لأمم أخرى عرضت منتجات محلاتها التجاريّة . وأعلى من صيحات السوق الخيريّة ، كانت مكبّرات الصوت تشيد بيانصيب عظيم يُلمح بكسب سيّارة فخمة أو حصان جميل . "

وفجأة تسلّط صوت على الضجّة العامّة قائلا : " انّ مئات من الأشخاص ينتظرون خارجا لأنّه من الصعب أن يدخلوا ساحة السوق نظرا للازدحام . فيا ليت بادرة لطيفة تحضر فى ذهن الذين فى الداخل وتحثّهم على الخروج لاعطاء محلّهم

لآخرين . - من كان يتوقّع الطاعة من الجمهور البرازيلى مفرط الحيويّة ؟ ولكن حصلت المعجزة : فقد خرج عديد من الزوّار سريعا ودخل غيرهم بدون ازدحام . - ومن كان صاحب هذه النصيحة الخلاّبة ؟ إنه اعظم رجل يرضى عنه الشعب فى ريو : هلدر كمارة . "

وفى صباح اليوم التالى كان الأسقف تعبا ولكنّه سعيد .. ويقول : " كانت السوق الخيريّة كما كنت أحلم وأتمنى : حفلة مسكونيّة حيث تقابل أخوياً جميع طبقات المجتمع ، كلّ الأنسال وكلّ الطوائف الدينيّة والأديان . وكنت اخترت عمدا لتلك السوق الخيريّة نادياً بخيلا فى استقباله ، ولكنّه فى ذلك اليوم ، فتح أبوابه على مصراعيها ، وأتى الشعب ، الشعب الحقيقى ، بما فيه طبقات الفقراء .

ومن كان فى استقبال هذا الشعب ؟ سفيرات : سفيرة سويسرا ، وهى بروتستانتيّة ، وسفيرة اليابان وهى بوذيّة ، وسفيرة اسرائيل ، وهى يهوديّة ... حتّى الأحزاب السياسيّة قد مارست فى هذه المناسبة هدنة الله التى كنت أطالب بها : فتقابل هنا ألدّ الخصوم . وأظهرت هذه الأيّام جليّا أنّ البرازيل متعطّش إلى سلام ومحبّة .

وتابع الأسقف هلدر كمارة قائلا : إنّى لا أنخدع ، لأنّ أعمالى ، مهما كانت ضروريّة ، ليست إلاّ علاجا مؤقّتا . فالسبب الحقيقى لوجود ظاهرة الفقر هذه ليس هنا فى المدينة ولكن فى البيئة الريفيّة ، حيث البؤس يدفع الفلاّحين نحو المدن الكبيرة . - إنّكم تدركون فى ريو أو ساو باولو أنّكم فى صلب القرن العشرين ،

ولكنّ الأرياف قد ظلّت فى عصر المستعمرين البرتغاليّين . ولذا ، فليس للعمّال الريفيّين منازل بمعنى الكلمة ، إنّهم يقتاتون ويكتسون من لا شىء ، وتنقصهم التربية الأوّلية ويُطلب منهم أن يعملوا بدون عقد عمل . وعليه فمستوى حياتهم أحطّ من المستوى البشرى . أنا على يقين أنّ البلد فى حاجة ماسّة إلى اصلاحات اجتماعيّة " .

هلدر كمارة فى خدمة العاملين

لم يمنع عمل هلدر كمارة لخدمة البؤساء من أن يتعاطى لارشاد العاملين ، سواء يدويًا أو فى الوظائف المختلفة . وهذا الارشاد هو ميدان النشاط الكاثوليكى الذى كان الأسقف أمينه العامّ فى البرازيل . - فى سنة ١٩٤٨ اهتمّ هلدر بغرس حركة الشبيبة العاملة فى ريو ، وفى نوفمبر ١٩٦١ ، أى بعد ثلاث عشرة سنة ، كانت الحركة قد نمت بالكفاية حتّى أمكنها أن تقيم مجلسها العالمى فى ريو ، الذى اشترك فيه مائتا ألف شابّ وشابّة من العمّال ، ملأوا ملعب ريو ، أوسع ساحة فى العالم فى ذلك الحين ، وهتفوا لمؤسسهم الأب / كاردين ، الذى كان ، فى الثمانين من عمره ، لم يزل مفعما بكلّ نشاط ينادى قائلا : " نودّ أنّ يدرك جميع الشباب العاملين فى العالم كرامة كونهم أبناء الله ... فليس رجاؤنا وهما ، لأنّ محبّة الله فى قلوبنا ، والمسيح يريد بوساطتنا أن يخلّص شبيبة العالم العاملة فى كلّ الشعوب والقارات . هيّا ، إلى الأمام ! ...

وفى صفّ البالغين ، شق النشاط الكاثوليكى لفئة العمّال طريقه أيضا : فقد

أقام المناضلون العمّاليون جمعيّات أحياء وتعاونيّات وفرق تربية شعبيّة ، والتحقوا بالنقابات . وفى نفس الوقت ، اكتشفوا ضرورة حياة مسيحيّة أصيلة . إلى جانب أنّ الطلاّب الجامعيّين ، الذين كان أغلبهم ينتمى إلى عائلات ميسورة ، صحوا من غفلتهم . ففى جامعة ريو الكاثوليكيّة نظّم مجلس إدارة الطلاّب أسبوعا اجتماعيًا - ظاهرة جديدة فى ذلك الحين - وأذاع منشوراً يطالب بعالم متضامن : " لا رأسماليّة ولا ماركسيّة ، ولكن التضامنيّة " . أجل ، إنّ خمير الانجيل قد اختمر فى زمن هلدر كمارة .

الفصل الثالث

فى خلفيّة المجمع الفاتيكانى الثانى

رجوع هلدر كمارة إلى اهتمامه بأبنائه الفقراء

انتهز الأسقف هلدر كمارة وجوده فى روما أثناء المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى ، بين ١٩٦٢ و ١٩٦٥ ، حتّى يصبح لولب مبادرة أخرى ، هى فرقة " كنيسة الفقراء " . كانت هذه الفرقة مكوّنة من نحو خمسين أسقفا من قارات العالم الخمس ، تجتمع فى المعهد البلچيكى تحت رئاسة الكاردينال جرلييه . وكانت مواضيع حوارها العلاقة بين المسيح والفقراء وضرورة أن تكون الكنيسة مطابقة للمسيح الفقير . كان هدف الأساقفة أن يبحثوا عن طريقة إنقاذ الكنيسة من تواطؤها مع العالم الدنيوى ، وعن الطريقة التى يضمنون بها تواجد الكنيسة فى عالم العمل ... وتميزت لقاءات الأساقفة بالبساطة والجوّ الاخائى وتقاسم الخبرات . وشهد بفرح أساقفة دول أوربّا الشرقيّة لصالح فقر البيئات التى ينتمون إليها وتعيش فيه كنائسهم . وأغلب الأساقفة الفقراء كانوا بالطبع من أمريكا الجنوبيّة .

اقترح الأسقف هلدر كمارة أن يُدعى الفقراء إلى أحد اجتماعات المجمع المسكونى المنعقد فى روما وأن يشغلوا فى الاجتماع أمكنة الشرف . وكـــان هذا

الاقتراح يرمز إلى ما حدث فى سنة ٢٥٨ فى عهد الامبراطور ڤاليريان ، الذى قدّم إليه شمّاس يدعى لوران ١٥٠٠ فقير ، كانت كنيسة روما تغذّيهم قائلا : " ها هى كنوز الكنيسة التى طلبتها أيّها الامبراطور " !

تذكّر هلدر كمارة محادثات مدينة مالين (بلچيكا) التى سجلت فى سنة ١٩٢٠ بداية النزعة إلى توحيد الكنائس وكان يقول للكاردينال سوينانس : " إنّ سلفك الكاردينال مرسييه عقد الحوار مع اخواننا المنفصلين . فيا ليتنا اليوم نفتح حوارا آخر يكون حوار العالم المتقدّم مع العالم النامى ! لماذا لا نتصوّر ، حول البابا فى أورشليم أو بومباى ، اجتماع أساقفة وخبراء من كافة العالم يبحثون فى مشاكل البؤس ويعلنون رسميًا عقيدة الكنيسة الاجتماعيّة ، ويكون اجتماعهم نوعا من باندونج مسيحى ؟

فى الواقع فرح هلدر كمارة برؤية البابا بولس السادس يزور البلدين اللذين أشار هو اليهما : فى أورشليم ، يوم ٥ يناير سنة ١٩٦٤ تعانق البابا والبطريرك أثناجوراس وكانت هذه المعانقة رمز السلام بين روما وبيزنطة . ثمّ يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٦٤ فى بومباى ، فى الهند ، حيث جهر البابا بدعوة رسميّة قائلا : يا ليت كلّ الدول تعرض عن سباق التسلّح ! ويا ليت كلّ دولة تكرّس ولو قسما من نفقاتها الحربيّة ليصبح رأس مال عالميًا لمساعدة أخويّة تقدّم للبلاد الناميّة . فى يوم ٦ يناير ١٩٦٧ ، أى بعد ثلاث سنوات ، رتّب البابا بولس السادس اللجنة البابويّة " للعدل والسلام " التى كانت ثمرة تأمّل فرقة " كنيسة الفقراء " التى ترجع مبادرتها إلى الأسقف هلدر كمارة .

من أجل خطوات الى الأمام يخطوها المجمع

بعد محادثاته إلى إخوانه الأساقفة ، توجّه هلدر كمارة باقتراح إلى أجهزة الاعلام التى كانت تتشرّف بمخاطبته ايّاها . بعد جلسة المجمع الثانية ، واستجابة لطلب الجريدة الأسبوعيّة " الشهادة المسيحيّة " ، قدّم الأسقف ، يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٦٤ ، بعض اقتراحات قد تؤدّى إلى تحسين أعمال المجمع . وكان ، بمناسبة كلّ موضوع ، يعترف أولا بعمل ايجابىّ قد حصل - وهذا يشجّع ويفرح - قبل أن يتمنّى إتمام خطوة إلى الأمام . فقد أشاد بشجاعة البابا يوحنّا الثالث والعشرين الذى عيّن بعض اللاهوتيّين كخبراء وانتزعت أسماؤهم من قائمة الشبهة السوداء ، وأكّد البابا بولس السادس ترشيحهم ، وذلك قرب افتتاح المجمع المسكونى الثانى . ولكنّ عدد الخبراء العلمانيّين بدا لهلدر كمارة ضئيلا جداً ، خاصة بالنسبة للمشروع الثالث عشر الذى سوف يصبح وثيقة " الكنيسة فى العالم المعاصر " . ومن جهة أخرى ، طلب هلدر كمارة أن يوجد الى جانب لاهوتيّى العالم المتقدّم مكان للاهوتيّى العالم النامى .

وكم كان فرح الأسقف لرؤية أنجليكانيّين وبروتستانت فى حرم القدّيس بطرس ، فى روما ، قد سُمح لهم بحضور كلّ جلسات المجمع الكاملة كمراقبين . ولكنّه يتساءل لماذا لا ندعو يوما ما إلى جلساتنا المسيحيّة المسلمين واليهود والبوذيّين ؟ سوف تكون هذه خطوة إلى الأمام : أن يمكنهم لمجرّد " مستمعين " ، أن يعبّروا عن أفكارهم فى جلساتنا الكاملة ! " " ولكن يحسن أيضا الآن أن نكثر من عدد العلمانيّين حتّى يكبر تمثيل المهن المختلفة وأوساط الحياة وأقاليم العالم أجمع . ولماذا نستمع اليهم فى جلساتنا الكاملة فحسب ، وليس أيضا فى اللجان التى هى

مختبرات المجمع الحقيقيّة ؟ قلت : " نستمع اليهم " لأنّهم خبراء ولهم بالطبع أفكار يدلون بها الينا . وفى هذه الحال ، لماذا نشير اليهم بلفظ سلبى ، وهو لفظ " المستمعين " ؟

بالنسبة للصحفيّين ، هنأ الأسقف هلدر البابا بولس السادس (وهو ابن صحفىّ) الذى ألغى هيئة الأمانة الصحفيّة التى كانت تعمل أثناء جلسة المجمع الأولى . لم يكن سنداً لأرائها ، بل كانت تقدّم مذكّرات تافهة أو أخباراً تشمل بعض أكاذيب تقيّة . أمّا الآن ، بعد إلغاء هذه الهيئة ، أصبحت محاضر المسئولين تدلى بما يحدث بالضبط . - هنا أيضا تمنّى هلدر كمارة أن يحصل الصحفيّون على نصّ المشروع نفسه بلغة حيّة وليس باللاتينيّة ، وأن يمكنهم أن يحضروا اللجان المجمعيّة و - يا للجرأة الهائلة - لماذا لا يعتمد وجود بعضهم فى الجلسات الكاملة ؟ ولكن ، لعلّ هذا الطلب الأخير سابق لأوانه !

أثناء جلسة المجمع الثالثة ، وخلال اجتماع صحفى ، ألحّ الأسقف هلدر كمارة فى فوائد اصلاح طقوس الصلاة : كان طقس الصلاة مرتبطا باللغة اللاتينيّة إلى حدّ أنّ الشعب فى أفريقيا وآسيا وحتّى فى أمريكا الجنوبيّة ، كان يتخيّل أنّه على صلة بكنيسة أوروبيّة ، رومانيّة . وقد أحدثت امكانيّة الاحتفال الطقسى لكلّ بلد بلغته تجديدا فى الرعايا ، ونخصّ بالذات إقامة القدّاس . وأمكن الشعب ، حتّى فى أبسط الأوساط ، أن يفهم معنى الذبيحة الالهيّة فى أكثر عمقها . كنّا نسمع غالبا الشعب يقول لنا : " لماذا انتظرتم كلّ ذلك الوقت لاعطائنا هذه الفرحة ؟ وكان يذكّر هكذا بالمشروع الثالث عشر الذى كان قيد التحضير . - كان علينا أن نبدأ بتحليل " علامات الأزمنة " الأمر الذى كان يقدّم لنا الفرصة لاظهار اهتمامنا ،

بعيدا عن كلّ همّ تبشيرى ، بمشاكل البشر والعالم .

وكان الأب كونجار يقول : " العالم رعيّتى " وقد تبنّى هلدر كمارة هذا الرأى الذى عزّزه المجمع . - فى المعهد البرازيلى ، وبالضبط فى الغرفة البسيطة التى كان يقيم فيها الأسقف هلدر كمارة ، كان شىء يلفت نظر الزائر ، وهو كرة أرضيّة . وقد أوحى كوكبنا هذا للأسقف هذه الأسطر :

" إنّ عينىّ تتنزه فى البحار السبعة
أفحص القارات
أنحنى على كلّ شعب
أفهم جميع اللغات
أحيط بنظرة محبّة جميع الذريّات البشريّة
وأجعل رسائل الله تشعّ على أبعد الشعوب
واذا كان هذا الكوكب الصناعى يوحى إلىّ بأشياء كثيرة
فكم يكون بالأحرى ايحاء الأرض الحقيقيّة
بين يدي التى هى أمّ البشر ،
معزّية الحزانى
وملجأ الخاطئين ! "

ذكرت الأب كونجار من لحظات . وسوف يعطى هذا اللاهوتى الشهير حكمه عن هلدر كمارة عندما يسأل عن كتابه الذى يعتبر حديثا صحفيًا وعنوانه : " حياة لخدمة الحقيقة " فيقول كونجار: أثّر فىّ دائما هلدر كمارة بنوعيّة حياته المطابقة

للانجيل ، إنّه لا يملك شيئا ، فيحيا بلا شيء . أخذت وجبة طعام معه ولاحظت أنّ أكله أقلّ من أكل عصفور . وهو رجل تسكنه نار داخليّة . ليس هو بعد ملك نفسه ، فهو لم يزل يضحّي بحياته لخدمة الآخرين . هلدر كمارة ، مثل الأسقف فراجوزو ، الذى لا أعرفه إلاّ من خلال كتبه ، هما رجلا الله : قد ناصرا دعوى الثورة غير العنيفة " . ويقول الأب كونجار إثر هذا الحكم : " لاحظت عند هلدر كمارة ، الذى امتلأ نضجا منذ زمن المجمع ، عنصرا تمثيليّا ، لأنّ اقتراحاته كانت أحيانا خياليّة بعض الشيء : فقد حدّثنى ذات يوم عن رغبته فى أن يرى المجمع ينتهى على ساحة القدّيس بطرس بسهرة عظيمة ، قد يتدخّل فيها هندوسى ويهودى ومسلم وبروتستانتى وأورثوذكسى ... وقداسة البابا ... وتكون نوعا من احتفال طقسى عالمى عظيم " .

اختتام المجمع المسكونى : هلدر كمارة مسالم نحو الجميع وفى كلّ ميدان

بالفعل ، كان هلدر كمارة يتخيّل ، فى منشور عنوانه " تبادل آراء مع الاخوة الأساقفة " ، أنّ رؤساء الأسر الدينيّة الكبيرة قد تجتمع فى ساحة القدّيس بطرس وتصلّى من أجل السلام . ولكنّ الأزمنة لم تكن ناضجة بعد . ومع ذلك ، ألم يكن حلم الأسقف شبه إعلان مسبّق لقمّة أسّيزى التى جمعت يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٨٦ ممثّلى الأديان الكبيرة ؟

وبالنسبة لحركة الكنيسة الكاثوليكيّة ضدّ الاصلاح ، التى كانت قائمة فى

الكنيسة بعد المجمع التريدانتى ، صاح هلدر كمارة قائلا : " كفتنا أربعة أجيال " المعارضة " ضدّ الاصلاح فى تحديداتنا ، التى كانت لها الأثر السلبى والمحزن فى تجفيف اللاهوت الغربى ! إنّنا نريد لاهوتا يتغذّى بالكتاب المقدّس ويشرب من الماء العميق النابع من دراسة آباء الكنيسة ، ويكون أمينا بحدّة ادراك لتوجيهات سلطة الكنيسة الحيّة ، ومتّصلا اتّصالا حميما بطقس الصلاة وراسخا بصلابة وواقعيّة ... فقد ضرّ كنيسة المسيح التمسّك الضيّق بالقواعد الأخلاقيّة والقانونيّة ، أو بمجرد الحلال والحرام البعيد عن الحياة المسيحيّة الايجابيّة وعن العدل والمحبّة والسلام ...وكانت نتيجة هذا ابتعاد عدد كبير من الناس عن الديانة ولامبالاة عدد أكبر من الأشخاص وقلّة اكتراث الذين كان مزمعا أن ينظروا إلى الكنيسة بعطف ."

ثم ذكر هلدر كمارة اصلاح قانون الشرع الكنسى قائلا : " لا شكّ فى أنّ القانون الإلهى مقدّس وغير قابل للتعديل ، ولكنّ الحقّ الكنسى القائم فى أيّامنا يرتكز أساسا على الشرع الرومانى ، الذى هو تحفة ، ولكنّه مع ذلك تحفة قانون وثنىّ " .

لم يحظ المجمع الفاتيكانى الثانى على احتفال ختامىّ جمع بين سائر الطوائف المسيحيّة كما تخيّله هلدر كمارة ، إلاّ أنّه أثناء احتضار البابا يوحنّا الثالث والعشرين قد رأى الأسقف هلدر كمارة الكاثوليك والبروتستانت واليهود والبوذيّين والمسلمين قد استولت عليهم نفس العاطفة الطيّبة واتّحدوا فى صلواتهم . وكاد بعض الأساقفة الموجودين آنذاك أن يعلنوا قداسة البابا يوحنّا الثالث والعشرين قبل دفنه .

تذكّر أنّ يوحنّا الثالث والعشرين هو البابا المسالم الذى دعا الكنيسة لعقد مجمع مسكونى يكون فرصة لاعتراف الكنيسة بأغلاطها ثمّ فرصة لمحاولة إصلاح هذه الأغلاط ، وطلب الغفران ممّن أساءت الكنيسة إليهم ، وذلك لتمهيد الكنيسة للانفتاح للعالم المعاصر الذى كانت تهمله . وفى ذلك الميدان ، نلاحظ قرابة واضحة بين البابا يوحنّا الثالث والعشرين وأسقف الفقراء ، هلدر كمارة ، تشمل طيبة قلب البسطاء وروح الطفولة وهبة العطف ودماثة الخلق ، إلى حدّ أنّ بعض الناس كانوا يسمّون الأسقف هلدر كمارة " يوحنّا الثالث والعشرين لشمال شرق البرازيل " . وفى الواقع ، فى أواخر سنة ١٩٦٥ ، أى فى نهاية المجمع الڤاتيكانى الثانى ، كان هلدر كمارة رئيس أساقفة " ريسيف " أى شمال شرق البرازيل ، منذ سنتين ونصف .

الفصل الرابع

رئيس أساقفة ريسيف

كانت مدينة ريسيه / Recife تلقّب فى الماضى " بالبندقية البرازيليّة " ، لأنّ الأنهار الصغيرة والمستنقعات تتقاطعها . وبعدما أسّسها الهولنديون ، سكنها منذ تأسيسها التجّار البرتغاليّون . والآن تتعارض منازلها الصغيرة ، التى تركها الاستعمار القديم ، مع البنوك القائمة فى ناطحات السحاب والساحات العصريّة الكبيرة .

أصبحت اليوم ريسيف رابع مدينة من مدن البرازيل ، وبين سكّانها الذين لا يتجاوزون المليونين ، كثيرون يزدحمون فى الأكواخ التى تنمو كأكوام قمامة على حافّة المستنقعات . - كتب أحد سكّانها منذ أربعين سنة كتابا عنوانه " جغرافية الجوع " ، نبّه فيه الرأى العامّ إلى جوع شعوب العالم الثالث .

ومدينة ريسيف عاصمة إقليم شمال شرق البرازيل الذى تساوى مساحته ثلاث مرات مساحة فرنسا وعدد سكّانه ثلاثون مليونا . هو أوّل قسم من البرازيل الذى جلب إليه السكّان ، وأصبح مركز الثروة الاستعماريّة والحياة الثقافيّة والسياسيّة . ولكنّه اليوم ، فريسة الجفاف والجوع والأميّة ، مثل أكبر مناطق الأرض النامية .

تنصيب هلدر كمارة رئيس أساقفة ريسيف

ولد هلدر كمارة ، أسقف الفقراء ، فى هذا الاقليم ، وأرجعه إلى نفس الاقليم تعيينه كرئيس أساقفة أولندا / Olinda وريسيف فى مارس سنة ١٩٦٤ . كانت أولندا المرفأ البرتغالى القديم ومقرّ أقدم أبرشيّة (مركز الأسقف) فى البرازيل ، أسّس فى سنة ١٦٧٦ ، وألحقت به روما ، فى سنة ١٩١٨ ، اسم ريسيف ، وهو اسم العاصمة المجاورة له التى أصبحت مقرّ رئيس الأساقفة .

عندما نزل هلدر كمارة من طائرته فى مطار ريسيف يوم ١٢ أبريل ، رحّب به الشعب كمرسل من الله ، ورافقته سلطات المدينة الى ساحة " الاستقلال " حيث سلّم إليه المحافظ مفاتيح المدينة . وقال رئيس الأساقفة الجديد عندئذ : " يا ليتنى أفتح جميع القلوب ! "

وفى الغد ، يوم أحد الراعى الصالح ، نصّب رئيس الأساقفة الجديد رسميا فى كاتدرائيّة أولندا ، أقدم كنيسة من كنائس البرازيل . وكان ينصت إلى خطبته ، التى أدلت ببرنامج عمله المستقبل ، ثلاثون أسقفا وسلطات المدينة والشعب ، قال فيها :

" من أنا ؟ - أحد سكان شمال شرق الاقليم ، يتوجّه إلى مواطنيه ، محدق النظر فى البرازيل ، فى أمريكا الجنوبيّة وفى العالم . أنا مخلوق بشرىّ يعتبر نفسه ، فى ضعفه وخطاياه ، أخا لجميع البشر ، مسيحى يخاطب المسيحيّين ، وقلبه مفتوح إلى البشر من كلّ العقائد " . - اسمعوا تحيّتى الأخويّة ، أنتم

الكاثوليك وغير الكاثوليك ، أنتم المؤمنون وغير المؤمنين . بصفتى أسقفا ، إنّى آت ، اقتداء بيسوع المسيح ، ليس لأنتظر خدمة الآخرين ، بل لأخدم . "

" أرجو ألاّ أثير استنكار أحد لأنّه يرانى أعاشر أشخاصا يعتبرهم الناس عادة غير أهل للاعتبار أو مخطئين . فمن ليس خاطئا ؟ وأرجو ألاّ يندهش أحد لأنّه يرانى فى صحبة أناس يُعتبرون مثيرين للشبهة أو خطرين ، من اليسار أو اليمين ، أنصار الحكم القائم أو المعارضين له ، الذين ضدّ الثورة أو الثوّار : انّ بابى وقلبى مفتوحان للجميع ، أجل للجميع على الاطلاق . "

ولكنّ الأسقف هلدر تابع قائلا " لابدّ ، على مثال المسيح ، من أن تكون لى محبّة خاصّة للفقراء . فالبؤس يثير الاشمئزاز ويحطّ من شأن المرء ، ويشوّه صورة الله التى فى كلّ إنسان ... سوف أغشّكم إذا قلت لكم إنّه يكفى ، لقهر البؤس ، قليل من السخاء ومن المساعدة الاجتماعيّة . أجل ، يجب أن نهب فى الحال لنجدة أولئك البائسين بؤسا صارخاً ، ولكن ، حتّى نصل إلى جذور الداء ، لابدّ من كسر الحلقة المفرغة الكامنة فى عدم التنمية والبؤس اللذين يولّد كلّ منهما الآخر . لا يمكننا أن نعرض عن بعض أعلام بحجّة أنّ بعض من حملوا هذه الأعلام قبلنا انخدعوا . ليكن لنا هدوء الروح والشجاعة لننتقذ من الضياع أفكارا صائبة تجسّدت فى عبارات امتنع الناس عن التفكير فيها فى الوقت الحاضر مثل الثقافة الشعبيّة ووعى الضمير ورفع المستوى الذاتى ...

وكان يشير هلدر كمارة بهذا الكلام إلى الانقلاب العسكرى الذى حدث فى أول أبريل سنة ١٩٦٤ ، حيث ، عزل الرئيس جولار ، وسجن الحكم الجديد بعض قادة

العمل الكاثوليكى بحجّة أنّهم يتكلّمون لغة تشبه لغة الشيوعيّين . - ألم يعامل الأسقف هلدر كمارة غالبا كأنّه شيوعىّ ؟ -

وعليه ، أعلن الأسقف قائلا : " يا ليتنا لا نتّهم بالماركسيّة المتعطّشين إلى العدالة ! أؤكّد أنّ فى إقليم شمال شرق البرازيل المسيح يدعى خوسيه ، أنطونيو ، سيفرينو ... ها هو ذا الرجل ! هو الرجل الذى يحتاج إلى عدالة ... يا ليت الاصلاحات التى نأملها تأتى بدون تأخير ، ولكن بدون ضرورة اللجوء إلى القوّة ، وخاصّة بدون حقد ، لأنّ أعظم خطيئة هى غياب المحبّة ، فالله محبّة . "

رُتبّت كلّ خدمات الأبرشيّة فى مقرّ رئيس الأساقفة : أى الادارة والرعائيّات وتعليم الدين المسيحى وكلّ أعمال التضامن فى جميع المجالات ، بما فى ذلك بنك العناية الالهيّة ، الذى أسّس على غرار البنك الموجود فى ريو . جعل الأسقف هلدر كمارة من مقرّه بيتا مفتوحا ، يُعتبر بيت الشعب . يستقبل فيه خلال النصف الثانى من النهار جميع من لهم طلب يقدّمونه للأسقف . شاع مثل برازيلى يقول : " إن كنت مشغول البال ، اذهب لمقابلة الأسقف " . وهذا المثل لا يكذب أبداً . ففى الواقع ، يستقبل هلدر كمارة الجميع بنفس الابتسامة ، بنفس ثبات المزاج : كادحى الأكواخ مثل أرباب المصانع المنتمين إلى المجتمع الراقى ، " لأنّ الأغنياء لهم أيضا نفس " يقول الأسقف .

يتحدّث هلدر كمارة كلّ صباح أمام جهاز إذاعة دار رئيس الأساقفة الملحق باذاعة أولندا . انطلاقا من حدث حصل فى اليوم أو رسالة تسلّمها أو من قصيدة منظومة ، ينقل الرسالة الانجيليّة فى الاذاعة التى عنوانها : " نحن كلّنا إخوة " ،

التى تصل على السواء إلى البسطاء وإلى الشخصيّات الكبيرة . قال الرئيس كاستيلو برانكو : إنى أتابع دائما بأمانة برامج الأسقف الاذاعيّة ، وأتذكّر هذه الجملة التى قالها يوماً : " حيث يوجد الإنسان لابدّ من أن تكون الكنيسة .

تؤيّد هذه الاذاعة حركة شعبيّة أسّسها الأسقف عنوانها : " تقابل إخوة " . يجتمع رجال ونساء فى بيت حول جهاز إذاعة ليسمعوا كلمة الله : بعد قراءة الانجيل ، يدعو الأسقف مستمعيه أن يظلّوا مجتمعين : فيعرض عليهم نصّاً وسؤالين : سؤالا عن النص ذاته حتّى يفهموه بتعمّق ، وسؤالا حتّى يربطوا بين الانجيل وحياتهم ، حياتهم اليوميّة ، مع آلامها ومظالمها وشروط العمل فيها . وهكذا نشأت جماعات القاعدة الشعبيّة الكنسيّة التى تعدّ فى نظر الأسقف رجاء الكنيسة ومستقبلها ، والتى أوصت بها هيئة أساقفة أمريكا اللاتينيّة فى اجتماعات " مدلّين " فى " كولومبيا " سنة ١٩٦٨ واجتماعات مدينة بوئيبلا Puebla فى المكسيك ، سنة ١٩٧٨ .

جماعات القاعدة الشعبيّة

يفرح راعى كلّ كنيسة فى شمال شرق البرازيل لأنّ يوم الأحد تقام بين خمسة وسبعة قداسات فى كنيسته ، وتكون ساحة الكنيسة مليئة بالمؤمنين فى كلّ قدّاس . ولكنّ الذين يحضرون القداسات ، خاصة فى المدن الكبيرة - وحتّى فى روما - لا يمثّلون الاّ نسبة مئوية بسيطة من السكّان . أين الآخرون ؟ جميع الذين لا يتردّدون على الكنائس ؟ إنّهم يعيشون فى الأحياء ، فى جماعاتهم الطبيعيّة .

ولذا ، بدأنا نتقرّب من هذه الجماعات . يذهب كهنة وراهبات - وبين الكهنة يوجد فرنسيّون وبلجيكيُون وألمانيّون - وعلمانيّون بالأخصّ ليعيشوا مع هذه الجماعات ، يشاركونها فى نفس الأكواخ ، فى القلق وعدم الطمأنينة ، وفى نفس التهديد بالطرد من الأكواخ . ونحن نتوجّه إلى هؤلاء الرجال والنساء الذين يريدون معاً أن يبلغوا إلى حياة أكثر إنسانيّة ونقول لهم : " لسنا هنا للتفكير بدلاً منكم ، بل للاستماع إليكم والبحث معكم ... ليس البؤس محتوما ، لابدّ من الكفاح للخروج منه ، فلا أحد وُلد ليكون عبداً . "

ليس الذين يعيشون فى حالات منحطّة وبائسة هم أحطّ مقاما من سائر البشر . فلهم رأس ليفكّروا ، وفم ليتكلّموا وقلب ليحبّوا . وفى هذه الجماعات ، عندما يُقرأ الكتاب المقدّس ، ويُتأمّل فيه ، قد تأتى غالبا جدا الكلمة الواضحة والمعاشة والمطابقة للانجيل أكثر من غيرها على فم أفقر الناس ، الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ، إنّى أتذكّر دائما كلمة يسوع القائلة : " أحمدك يا أبت ، ربّ السماوات والأرض ، قد حجبت هذا عن الحكماء والأذكياء ، وكشفته للأطفال .

إنّ هؤلاء الفقراء يعبّرون عن إدراك كرامتهم وحقوقهم بأغانٍ مثل : " لا يريد الله ذلك " كلاّ لا يريد الله عالما ينقسم بين الذين يسيطرون والذين يُحنون ظهرهم خضوعا ، بين القصور والأكواخ . شيئا فشيئا ، يأخذ الفقراء حياتهم على عاتقهم حتّى يجعلوها أكثر إنسانيّة و أكثر جدارة بأن تصبح حياة أبناء الله . "

الادارة المسئولة عن تنمية شمال شرق البرازيل - وحركة تربية القاعدة الشعبيّة

إنّ طريقة تحسين مصير السكّان هى تنمية إقليم شمال شرق البرازيل الاقتصاديّة وتربية قاعدته الشعبيّة . ولكنّ اتّجاهات الحكومة المحليّة لا ترمى إلى هذا الهدف .

كان الأساقفة غير مقتنعين بأنّ مصدر بؤس إقليم شمال شرق البرازيل ليس الجفاف فحسب ، فدعوا فى شهر مايو سنة ١٩٥٩ للاجتماع ومعهم بعض فنّيين من المؤسّسات الرسميّة الذين يعملون فى المنطقة بنظام مشتّت . واشترك الرئيس كوبتشيك نفسه فى هذا الاجتماع الذى برزت منه الادارة المسئولة عن تنمية شمال شرق البرازيل . وتحت نظارة شابّ جدير ، عالم اقتصادى ، يُدعى شِلسو فورتادو ، شرعت الادارة فى عملها : زوّدت البلاد بالطرق والماء والكهرباء ، وشجّعت التصنيع وعصّرت الزراعة . - وفى الميدان الاجتماعى ، حاولت أن تقنع أصحاب المزارع بدفع الأجر الكافى للعاملين ، ولو الحدّ الأدنى منه ، واعطاء قسم من أملاكهم الواسعة لفلاّحين لا أرض لهم . - وانتظمت جمعيات أسر وجمعيّات تعاونيّة . وأثار هذا التخطيط ردود فعل عنيفة عند الذين كانت مصلحتهم أن تظلّ الأمور كما كانت ، وحصل هؤلاء المعارضون ، بفضل ثورة أبريل ، على عزل فورتادو .

وعندما كان الأسقف هلدر كمارة فى ريو - قبل تعيينه فى ريسيف - لعب دورا فعّالا فى تأسيس هذه الهيئة الاجتماعيّة الخاصّة بتنمية إقليم شمال شرق

البرازيل . وكان حلقة التّصال بين الأساقفة والحكومة . ولمّا وصل إلى ريسيف أسف لرؤية هذه الهيئة شبه نائمة . ومع ذلك أعلن قائلا : " سوف نتابع الصراع لترقية ملايين من سكّان البرازيل . - بأىّ طريقة ؟ - بتربية القاعدة الشعبيّة .

فى سنة١٩٦١ ، أسّس اجتماع الأساقفة حركة تربية القاعدة الشعبيّة بتحريض من هلدر كمارة ومن أسقف آخر يدعى تاڤورا . وكان المقصود من هذه الحركة تربية كاملة : ليس فقط محو أميّة البالغين ولكن غرس مبادئ الزراعة في أذهانهم والاهتمام بالصحّة والتدبير المنزلي والوطنية والرحلات . وهكذا فرح ملايين من الأشخاص بتيقّظهم لحياة إنسانيّة أفضل وأدركوا كرامتهم وحقوقهم . - والتحق عدد لا بأس به منهم بالنقابات والجمعيّات التعاونيّة والمؤسّسات المهنيّة ، يريدون تغيير بعض هيئات ظالمة ، ولكن لم يكن هذا من السهل ، وقوى الحفاظ على القديم كانت متينة .

وكانت هذه الحركة لصالح القاعدة الشعبيّة قد دبّرت كتابا فيه مبادىء عمل اجتماعى قيّمة ، عنوانه : " الحياة كفاح " وكان الأساقفة الخمسة قد قرأوا هذا الكتاب ووافقوا على مضمونه . ولكن عندما اطّلع عليه حاكم ريو ، كارل لاسردا ، رأى أنّه " هدّام " وأوقف طبعه . ماذا كان خطر هذا الكتيّب ؟ أوضحت هذا الخطر جريدة ريو اليمينيّة الكبيرة يوم ١٣ مارس سنة ١٩٦٤ بقلم الأستاذ جودين . كتب : " الحياة كفاح " ها هو عنوان هدّام للغاية ! ... إنّ مجرد إعلان أنّ لكلّ انسان حقّا فى مستوى حياة لائق نظريّة جديرة بحمار " .

ألقى النظام الحكومى الجديد مسئوليّة هذا الهدم على حركة تربية القاعدة

الشعبيّة . فأغلق عدّة مراكز اذاعيّة واعتقل المسئولين . هل هو القضاء على حركة التربية الشعبيّة ؟ - انتقل مدير الحركة الأسقف تافورا والأسقف هلدر كمارة إلى العاصمة برازيليا حيث الرئيس كاستلو برانكو ، المنفتح العقل أكثر ممّن قلّدوه السلطة ، وسمح للحركة بأن تتابع نشاطها .

ولكن ، لكم من الوقت ؟

الفصل الخامس

فى مجابهة الطغيان

ما هى بالضبط ثورة أوّل أبريل سنة ١٩٦٤ ؟ إنّها تندرج فى معطيات خاصّة بأمريكا اللاتينيّة . قد يندهش مؤرّخ المستقبل لاكتشافه أنّ هذه القارة ، المفروض أنّها الاقليم الأكثر كثلكة فى المسيحيّة ، كانت فى القسم الثانى من القرن العشرين أرض اضطهاد . وليس بحكم طغاة كافرين ، أعداء للديانة ، كما قد يحدث فى بلاد شرق أوربا أو فى الشرق الأقصى ، ولكن بالعكس باسم الدفاع عن الحضارة الغربيّة والمسيحيّة الذى سبب اضطهاد الكنيسة .

مذهب " الأمن القومى "

فى الواقع ، إنّ الأنظمة العسكريّة التى ظهرت فى القارة البرازيليّة استرشدت ليس بمبادىء العقيدة المسيحيّة ولكن بمذهب " الأمن القومى " ، الذى صمّمه فى فكره رجل من السويد يُدعي Rodolf Kjellermann . وقد نُظّم هذا المذهب باتّصاله بالنازيّة ونُشر بتكييف فى أمريكا اللاتينيّة .

وفقا لهذا المذهب ينقسم العالم بطريقة متصلّبة إلى قسمين : الغرب والشرق ، البلاد الحرّة والبلاد الشيوعيّة . ولا يمكن أن يكون القتال بينهما إلاّ كاملاً .

فى البرازيل سبقت النقلاب حملة واسعة تندّد بالخطر الشيوعى . واشترك فيها قسم من الاكليروس : كهنة وأساقفة . وتمثّل عُصَب الفلاّحين - فى شمال شرق البرازيل بصفة خاصّة - الخطر الشيوعى فى نظر القائمين بالدفاع عن النظام القائم . - وكان مؤسس عصب الفلاّحين هذه محاميا يدعى فرانشيسكو خولياهو . اكتشف هذا المحامى فى دفاعه عن الفلاّحين حالة الظلم التى يعانون منها : فكان كثير منهم ضحايا عنف بل وقتل أحيانا من قبل ميليشيّات خاصّة تعمل لصالح كبار الملاك .

عقد المحامى فرانشيسكو خولياهو اجتماعا سياسيًا فى التاسع من سبتمبر سنة ١٩٦٣ بقرب من ريسيف ، ووزّع منشورا يقدّم مبادىء زعيم الفلاّحين قائلا : إنّى لست متعطشاً إلى دم ولكنّى جائع إلى العدالة . - والعدالة هى الأرض ، هى المنزل ، هى الخبز ، هى المدرسة ، هى الحرّية ... وتكلّم خولياهو عن الانتخابات الأخيرة : " هل تعرفون يا زملائى إنّ أقلّ من خمس شعبنا قد انتخبوا ؟ لماذا ؟ لأنّ الأميّين لا ينتخبون فى بلط يمثّلون فيه ٩٠ ٪ من جماهير الفلاّحين ... لن يتحرّر بلدنا بالانتخابات . سوف يحرّر بالفلاّحين الذين ليس لهم أرض ، بالطالب الذى ليس له مدرسة ، بالأطفال الذين ليس لهم مستقبل ، بصاحب محلّ صغير ، بعاملة منزل ، بكلّ شخص عنده قلب ليشعر بما يمسّه من خير أو شرّ ، وفم ليرتل به كلمات نشيدنا الوطنىّ : " لا شىء من الظلم يظهر فى برنامج العصب " ، التى تدافع عن حقّ الفلاّح فى حياة انسانيّة . أجل ، إنّ الحزب الشيوعى انضمّ

للأسف إلى هذه الحركة الاجتماعيّة الموزونة ، ولكنّ الحكم القائم انتهز وجود الشيرعيّين فى الحركة حتّى يعتبر عصب الفلاّحين كهيئة مرعبة .

غلطة السيد جولار Goulart ، رئيس الجمهوريّة البرازيليّة

إنّ اتّجاهات رئيس جمهوريّة البرازيل منذ سنة ١٩٦١ كانت غريبة للغاية . اذ أنّ خطبه المتقلّبة كانت تخاطر بإحداث ردود فعل الضبّاط . فقلق منها الأسقف هلدر كمارة . - واتّفق هذا الأخير مع رئيسه الدينى الكردينال متّه Motta على أن يقابلا رئيس الجمهوريّة حتّى يحذّراه ويمنعاه من أن يورّط نفسه والدولة فى اتّجاه مليء بالأخطار . ولكن ، أثناء زيارتهما له سمح الرئيس بأن تؤخذ له ولزوّاره صورة فوتوغرافيّة ، ظهرت فى الصحف بعد أيّام قليلة ، وجعلت الهيئة العسكريّة العليا التى استولت على زمام الحكم تظنّ أنّ هلدر كمارة والكاردينال متّه يؤيدان هذا الرئيس بدلا من أنّهما كانا يحذّرانه .

الانقلاب

حصل انقلاب على يد القادة الضبّاط يوم أوّل أبريل سنة ١٩٦٤ ، وكان شعارهم : " ليطرد الشيوعيّون ! " - ماذا كان ردّ فعل الكنيسة ؟ عقد اجتماع الأساقفة جلسة فى ريو من ٢٧ الى ٢٩ مايو ، بينما كان هلدر كمارة أمينا عاما لهذا الاجتماع . وأعلن اجتماع الأساقفة بلاغا رغم أنّهم كانوا فى تنازع بين

اتّجاهين : هنّأ الاتّجاه الأوّل ، الذى جذب أغلبيّة الشعب ، الضبّاط بأنّهم أنقذوا الدولة من الخطر الشيوعى بدون سفك دماء ، وحذّر الاتّجاه الثانى ، الذى كان يستند إلى الأقليّة ، من عواقب حقبة التطهير التى كانت على الأبواب . واضطّر اجتماع الأساقفة أن يعلن : " نرجو أن يتمتّع المتّهمون بحقّ الدفاع عن أنفسهم ، وألاّ يصبحوا موضع حقد أو انتقام . لا نقبل أنّ تتّهم بعض عناصر تدّعى الدفاع عن الضمير الكاثوليكى وارشاده ، أن تتّهم بالشيوعيّة أساقفة وكهنة ومؤمنون أو منظّمات مثل العمل الكاثوليكى أو حركة تربية القاعدة الشعبيّة . فلن نصل إلى إصلاح النظام الاجتماعى طالما لم نستأصل المظالم الاجتماعيّة . "

كان الأسقف هلدر كمارة يحاول تفسير الأحداث دونما يؤيّدها . فكان يقول : " لابدّ من أن تكون لنا شجاعة الاعتراف بخطايا الاهمال التى ارتكبناها نحن ، رجال الكنيسة ، : كنّا منشغلين بالمحافظة على السلطة والنظام الاجتماعى إلى حدّ أن أصبحنا غير قادرين على أن نرى المظالم الهائلة التى تخفيها هذه السلطة وهذا النظام . كنّا نتحدث عن الصبر والطاعة واتّحاد آلامنا بآلام المسيح ، وكان لكلّ ملكيّة كبيرة معبدها ومرشدها الروحى ، وكان السادة الكبار والحكومات فى راحة لسند الكنيسة ، ولكن اليوم ، عندما يرى المسئولون أساقفة وكهنة يندّدون بالمظالم يعتبرونهم مهيّجين ومخرّبين ، فيندّد أصحاب الحكم بتسرّب ماركسىّ فى الكنيسة .

من الآن يسود برازيليا النظام الصارم ، الذى شدّد سطوته بعد الضربة القاسية التى تمّت يوم ١٣ ديسمبر سنة ١٩٦٨ ، حيث " الأقوياء " أرغموا المشير كوستا اي سيلفا على اصدار الحركة المؤسّسيّة رقم ٥ التى تشير إلى بداية استبداد حقيقى:

حلّ البرلمان وتفويض كامل والغاء الضمانات القضائيّة ... إنّ كلّ الذين يظهرون أنّه بامكانهم أن يؤدّوا إلى معارضة النظام العسكرى القائم - عمّالا كانوا أو فلاّحين ، طلاّبا أو صحفيّين ، رجالا سياسيّين أو دينيّين - يعتبر الحكم القائم أنّ اتّجاههم معروف ومعيّن ، أى شيوعى . وعليه ، تعرّضهم أقلّ شبهة الى الاعتقال أو الحبس أو التعذيب بل أحيانا الى القتل .

وللقبض على المشتبه فيهم تدخل قوّات النظام بغتة أثناء الليل فى المنازل مثل الشرطة السرّية النازيّة سابقا ، أو ينظّمون اختطافات فى عرض الشوارع ... وقد توجد منافسة بين أقسام قوّات الشرطة : الشرطة الاتّحاديّة ، شرطة كلّ من الاثنتين وعشرين ولاية ، شرطة كلّ من القوّات الثلاث : البريّة والجويّة والبحريّة ، وتعطى دروس تدريب على طريقة انتزاع الاعترافات بالخطأ . يزاد على ذلك اختصاصيّون لا يتكلّمون الاّ باللغة الانجيليزيّة وأنظمة خاصّة مثل كتائب الموت ، المكوّنة من أشرار تخصّصوا فى القتل والاغتيال . فى الاجمال ، هى سلسلة أوكار أقوى من الحكومة وأصحاب سلطة أعظم من سلطة ميديسى Medici رئيس الوزارة ، الذى هو شخصيّا عدوّ التعذيب .

اغتيال الأب / نيعو

كان هلدر كمارة الهدف المفضّل للنظام القائم : أنهكته التهديدات والرسالات والمكالمات التليفونيّة الليليّة . ثقّبت طلقات رشّاش صغير جدران مقرّه ، وخطّطت يد مجهولة بحروف من دم هذه الكلمات : " ليقتل الأسقف الأحمر " ولكن من

يجرؤ على قتله ؟ سوف يعتبره الناس شهيداً ويثير قتله سخط الشعب . ولذا ، هدف إليه أعداؤه عن طريق أقرب معاونيه وأمين سرّه ، وهو الأب / أنطونيو بيريره نيتو Antonio Peirera Neto ، الذى لم يتجاوز الثامنة والعشرين سنة من عمره . وفى يوم ٢٧ مايو سنة ١٩٦٩ ، وُجد الكاهن الشاب مشنوقا على شجرة ، ممزق العنق ، مصابا بثلاث طلقات فى رأسه وعلى جسمه آثار تعذيبات . وكان الاغتيال فى الغالب عمل فدائيّى قنص الشيوعيّين .

كانت جنازة الأب / نيتو مثيرة للغاية : فعلى مسيرة عشرة كيلومترات ، ورغم المطر المنهمر ، رافق خمسة آلاف صديق له جثمانه ، الذى كان يحمله طلاّب ، يرتّلون مع الشعب : " ما من حبّ أعظم من حبّ من يبذل نفسه فى سبيل أحبّائه " (يوحنّا ١٥ : ١٣) . وأثناء دقائق ، انتهزت الفرصة بعض فرق من الشعب ، وفكّرت فى اظهار لافتة مكتوب عليها : " ليسقط الطغيان ! " فهجمت الشرطة لضربها ، ولكن ، فى لحظات وُجد هلدر كمارة فى التصادم وهدّأ الجميع .

وخلال القدّاس ، أعلن الأسقف هلدر كمارة قائلا : " بصفتنا مسيحيّين ، لنقتد بالمسيح وبالشهيد اصطفانوس ، ولنطلب من الله أن يعفو عن القتلة ، مردّدين كلمة يسوع : لأنّهم يجهلون ما يفعلون " . ولكنّ اعتراض الأسقف كان مع ذلك شديدا : " نحن نقسم أن نكون أمناء على الكفاح لتحرير شعبنا مادّيا وروحيّا " . وكان الشعب يردّد : " نقسم ذلك " . - كانت هيئة الأساقفة فى البرازيل والبابا بولس السادس متضامنين تماما مع هلدر كمارة ، الأولى ببلاغ والثانى ببرقيّة ، يعبّران بهما عن اشتراكهما فى حداد أسرة الكاهن المقتول وفى حزن رئيس أساقفة ريسيف .

المحامي عن شعبه

إنّ أسقف ريسيف سوف يجعل نفسه حارس شعبه أثناء الطغيان . - بين جميع تدخّلاته نكتفي هنا بتدخّله الذى حصل يوم أول مايو سنة ١٩٧١ ، وهو يوم عيد العمل . - وجّه الأسقف هلدر كمارة ومعاونه الأسقف لامارتين رسالة إلى " إخوانهما في الأسقفيّة " وإلى " شعب الله " في أبرشيّتهما ، يقولان فيها :

" نشهد في مدينتنا عددا كبيرا من حالات التغيّب واحتجازات واعتقالات لأشخاص ، لاسيّما بين العمّال والطلاّب . ولا يشير المسئولون عن هوية هذه الحالات الاّ نادراً ، لأنّهم لا يقدّمون البتّة ما يبرّر الأمر بالقبض . فهم يقبضون على الأشخاص في المنازل ، أو إذا كانوا عمّالا أو عاملات ، ففي مقرّ عملهم وزمنه ، مدّعين هكذا أنّ المتّهمين ارهابيّون خطرون ... وليس من الصعب أن نستشفّ جوّ الذعر الذى يسود في العائلات المتروكة بدون أيّة إشارة إلى المكان الذي يحتجزون فيه أقاربهم المعتقلين . وفيما بعد ، يسير الأقارب على غير هدى من قسم شرطة الى آخر أو جيش ، من دولة البرنامبوك أو مقرّ الحكومة الاتّحاديّة ، حيث يظنّون اكتشاف الضحايا . ولكن هيهات !

ويقول هلدر كمارة : " بصفتنا رعاة الشعب ، نتحمّل مسئوليّاتنا أمام الله ، ونؤكّد للأسف أنّ اللجوء إلى التعذيبات الجسميّة والأدبيّة غير المعقولة أصبح هو القاعدة العامّة ... فالى متى (بحجّة الكفاح ضد الارهاب) ، سوف نستعمل طرق ارهابيّة تجعلنا نميل إلى الطلب أن يطبّق على الأقلّ ازاء الضحايا قانون حماية الحيوانات ؟ "

وأحيانا ، كان الأسقف يتدخّل فى حالات معيّنة : وهذا ما قام به يوم ١١ يناير سنة ١٩٧٣ لصالح أحد معاونيه فى الحركة التى تدعى : " تقابل الأخوة " .

" يوم الاثنين ٨ يناير ، بين الساعة التاسعة والتاسعة ونصف صباحا ، كان خوايو فرنشيسكو فى منزله ، و فجأة خرج أربعة رجال بزىّ مدنىّ من سيّارة بدون لوحات معدنيّة رسميّة وبدون أن يعرّفوا بأنفسهم ، ودخلوا المنزل برشّاش صغير فى قبضة اليد ، وطلبوا بصياح " الأسلحة والوثائق " . فاستولى الرعب على زوجة خوايو ، التى كانت حاملا وفى شهرها السابع ، فوقعت على الأرض ، وسبّب رعبها وسقوطها خطراً جسيما لحالتها الخاصّة . وبالطبع لم يكن هناك أىّ وجود لأسلحة ولا لوثائق . فتّش المعتدون المنزل برمّته وملأوا حقيبة من كتب وأوراق لا قيمة لها . وقادوا خوايو فرنشيسكو إلى السيّارة بعدما قيّدوا يديه وراء ظهره ، وأحاطوا به هم الأربعة بأسلحتهم . - وتابع هلدر كمارة قائلا : " فذهبتُ مع الأسقف المساعد إلى مقرّ الأمن الدولى العامّ ، ولكنّنا لم نحصل على أيّة معلومات . ولذا فنحن نندّدّ من جديد بجوّ القلق والاضطهاد الذى نعيش فيه .

مهدّد بالموت

فى مقرّ القيادة العسكريّة العليا لعلّ أكثر من شخص يفكّر فى الأسقف هلدر كمارة ويقول فى نفسه : " آه ، يا ليتنا نسكّت نهائيًا صوت هذا الشخص ! ... " يا ليت التهديدات بالموت التى تصله بالبريد اليومى تتحقّق يوما ما ! " ... وفى الواقع يدرك هلدر كمارة أنّه من الممكن أن يعانى ما عاناه غاندى أو القسّ مارتن

لوثر كنج ، أى أن يكون مصيره القتل ... وكان يلمّح إلى ذلك عند مروره بروما فى أبريل سنة ١٩٦٨ قائلا : " قد تكون زيارتى هذه إلى روما الزيارة الأخيرة : وفعلا ، كانت تدبّر عدّة مؤامرات ضدّ حياته . أعلن المطران نيجريروس Negreiros أنّ أناسا أخبروه بتآمر على شخص هلدر كمارة لازالته ، ليس باعتداء مباشر ، ولكن بتصنّع حادث مثل الذى قضى على حياة المطران الجللى Angelelli الأسقف الأرجنتيتى .

وكان أصدقاء هلدر كمارة قلقين لعلمهم بأنّه لا يتّخذ الاحتياطات اللازمة للنجاة من الخطر . وكان هو يردّد : " يقال لى إنه ليس من الفطنة أن أفتح بابى شخصيًا وأن أركب سيّارة أى شخص كان ، وانّ چون كندى كانت تحرسه أعظم شرطة فى العالم ، ولم يمنعه ذلك من أن يُقتل . " - ومرات أخرى ، كان يجعل هلدر كمارة يده تمرّ على جبينه الأصلع ويقول بفكاهة : " يسقط شعر رأسى ، ولكن لا شعرة تسقط بدون إذن الآب . وقال للبابا بولس السادس ، الذى كان يسهر على سلامته : " إنّى أجيب على قداستكم بقلب مفتوح : يخيّل الىّ أنّ تقدمة الحياة لسلام العالم ، وللتقارب بين البشر نعمة لا يستحقّها أحد . وعليه ، اذا أهدانى الربّ هذه النعمة بدون أىّ استحقاق من جهتى ، ليس علىّ أن أهتمّ البتّة بذلك ! " . وفيما بعد ، سوف يستشهد برئيس أساقفة سان سالڤادور : " استحقّ أوسكر روميرو حظوة الاغتيال خلال القدّاس ، مازجا دمه بدم المسيح . "

فغير منتظر أن تخور قوى الأسقف كمارة : قد تُقتل الرجال ولكنّ الأفكار لا تقتل . وأفكار هلدر كمارة ، سوف يستمرّ فى التعبير عنها مهما حدث : فى البرازيل ، بقدر الامكانيّات التى تترك له ، وبحريّة أعظم وأبعد من البحار .

الفصل السادس

انّـه يرفـض التعذيـب

نحن فى مايو سنة ١٩٧٠ . دعا المركزُ الفرنسى لأصحاب الفكر الكاثوليكى هلدر كمارة ليلقى محاضرة يوم ٢٦ مايو . وبعد التردّد على اختيار قاعة المحاضرة ، اختار المسئولون قصر الألعاب الرياضيّة فى باريس . ومع ذلك فكّروا فى أنّ هذا القصر قد لا يكفى لاستيعاب المستمعين ، رغم أنّه يتّسع لأربعة عشر ألف مستمع .

لماذا هذه الجاذبيّة لاستماع هذا الرجل ؟ فى الآونة الأخيرة ، تحدّثت الصحافة فى العالم ، وبالأخصّ فى فرنسا ، عن حالات التعذيب فى البرازيل . ولكنّ وزير العدل فى البرازيل كذّب هذه الأخبار ، قائلا : " لا يوجد تعذيب فى البرازيل ولا يعتقلون سياسيّون ، ولكن فقط حملة ذمّ عالميّة يديرها عملاء يحاولون قلب نظام الحكم القائم .

ولكن ما الأمر فى الحقيقة ؟ - ينتظر الناس جوابا عن هذا من الأسقف هلدر كمارة .

بالنسبة إليه ، هي مشكلة ضمير . هل يسمح لنفسه أن يندّد بحكومة بلده في الغُربة ؟ وهل هو ، رجل الكنيسة ، الذي يكره أن ينفرد بالقتال ، سوف ينقض أقوال بعض إخوانه الأساقفة الذين أكّدوا في الواقع قضيّة الحكومة ؟ ألا يجازف هكذا بأن يجرّد هو شخصيًا من حقوقه الوطنيّة وأن يرى نفسه محروما من متابعة رسالته كرسول العدالة والسلام عبر العالم ؟ - خلال ثلاثة أيّام ، عاش مأساة الأسقف الذين كانوا قد عهد إليهم بمشكلته . وهو كان يصلّي طويلا أثناء سهره يوميًا . - أخيرا قرّر أنّه سيتكلّم : لأنّه قبل أن يكون مواطنا برازيليًا هو أسقف من أساقفة الكنيسة الجمعاء ، وهو أخ لجميع البشر . وقبل مصلحة الدولة توجد مصلحة الله .

"الاقتداء بجلادي يسوع المسيح"

كان خمسة عشر ألفا من المستمعين ينتظرون هلدر كمارة في قصر الألعاب الرياضيّة مساء يوم ٢٦ مايو . حيّوه بحماس وهو داخل إلى الميدان : وحيث يجابه رجال مفتولي العضلات كان نجم السهرة رجلا صغير القامة هزيل المظهر ، يجرؤ أن يصمد في وجه طغيان عسكري ذي نفوذ ، كأنّه داود ضدّ جليات .

فورًا ، أوقف هلدر كمارة مستمعيه على حقيقة الأمر قائلا : " لو لم تكن لي الشجاعة هذا المساء أن أكلّمكم بصدق وصراحة عمّا يحصل في البرازيل ، لاقتنعت تماما أنّي خيّبت أملكم . سأتكلّم إذن بقوّة وجدّية . ولكن افهموا جيّدا لا يوجد في قلبي أقلّ أثر للحقد .

لم يكتف هلدر كمارة ، الرجل الذى يدافع عن الانسان ، بتبليغ عامّ عن التعذيب ، بل ذكر حالتين واضحتين : **الحالة الأولى** حالة طالب فى ريسيف يدعى لويس ماديروس Luis Madeiros . زاره الأسقف فى سجنه ورأى أنّ الجلأدين قد كسروا أعضاء جسمه وقلعوا أظافر أصابعه . وأفضى اليه المسكين بأنّهم هرسوا أعضاءه التناسليّة . فارتجف هلدر كمارة من الهلع وذهب يبلّغ حاكم لبرنامبوق Pernambouc :(اسم ريسيف سابقاً) سخطه. فسأله هذا : " هل تعرف طريقة أخرى للحصول على معلومات ضروريّة لحماية النظام العامّ ؟ " عذر أقبح من ذنب ! كأنّه يمكن أن نأتمن على اعترافات انتزعناها تحت التعذيب ".

والحالة الثانية حالة راهب دومينكانى شابّ من ساوباولو يدعى تيتو دى ألنكار / Tito de Alencar ، لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره . حبسته الشرطة فى نوفمبر سنة ١٩٦٩ حتّى يعطيها أسماء بعض أناس متّهمين . وبما أنّه كان يرفض الكلام أخضعته لتعذيبات مختلفة : ربطوه عاريا مقيد الأيدى والأرجل ، وعرّضوه لصدمات كهربائيّة ، مثل كرسى التنيّن وهو نوع من التعذيب الكهربائى المعروف والدهليز البولاندى ، الذى يمرّ فيه المسكين بين صفّين من العساكر يشبعونه ضربا حتى يقع على الأرض مغمى عليه . وكان يقول النقيب البرفاز / Albervaz ، أحد الذين عذّبوا تيتو ألنكار : " إن لم يتكلّم ، سوف يحطّم من الداخل : انّنا نعرف كيف نقوم بما يجب عمله دون أن نترك آثارا ظاهرة .

هكذا ، ليست عمليّات ابادة الشخصيّة هى احتكار الأنظمة الماركسيّة ، بل تظهر أيضا لدى أنظمة تدّعى حماية قيم الغرب المسيحى . يذكر هلدر كمارة مثل تعذيب نفسانى (محضّر لتعذيب جسمانى) رواه تيتو نفسه فى رسالة الى رئيسه

الرهباني ، قال : " ألبسني رجال الشرطة حلة كهنوتيّة وطلبوا منّي أن أفتح فمي على زعمهم أن أتناول القربان الأقدس ، وأدخلوا في فمي سلكا كهربائيا . وبالطبع ، احترق فمي وانتفخ انتفاخا كاملا ، وكانت غايتهم أن أصير مجنونا . "

واحتمالا أن يخضع تيتو لجلسات أخرى من هذا القبيل ، انحطّت قواه النفسيّة إلى حدّ أنّه حاول أن ينتحر بقَطْع عروقه بواسطة قطعة من صفيح منزوعة من علبة سردين . - عندما استعاد حواسّه ، كان في مستشفى عسكري ، تهتمّ به راهبة من راهبات المحبّة . وكان الأسقف أرنز / Arns ، مطران ساو باولو المساعد وفيما بعد كردينال ، واقفا على رأس فراشه . فقال له الراهب الدومينكاني : " ليست حالتي حالة استثنائيّة البتّة " ، ما حصل لي هو القاعدة العامّة للأسرى السياسيّين : كثير منهم ماتوا ، وأصبح غيرهم صما أو عِقاما أو مجانينا . " وهذا يذكرنا بأقوال فرونسوا مورياك اثناء حرب الجزائر : " بعد تسعة عشر جيلا من المسيحيّة ، لا يظهر ابدا المسيح في شخص المعذّب في نظر الجلاّدين الحاليين .. ويا للغرابة ! إنهم لا يسمعون عبر صرخات ضحاياهم وانّاتهم صوته المعبود : " اليّ تفعلون ذلك" .

سوف يعترف هلدر كمارة بصراحته المألوفة : " نحن ، معشر المسيحيّين ، علينا أن نعترف أنّ في زمن " محكمة التفتيش " قد اشتركنا في هذا التعذيب . عندما أقارن بين آلات تلك الأزمنة الغابرة وآلات أيّامنا ، أكتشف شيئا جديداً واحداً : هو الكهرباء .

وانطلاقا من التعذيب الجسماني ، وسّع هلدر كمارة آفاقه في محاضرته إلى

المسلّح طريقة أقلّ ضررا من اضطهاد الفقراء ؟ انّى أطلب ممّن يلجأون اليه أن يمتحنوا عواقب عمله . بعدما اختطفت الشرطة سفير الولايات المتّحدة الامريكية وقنصل اليابان ، جرى اعتقالهما وتعذيبهما ، إلى حدّ أنّهما سلّما أخيرا اسماء زملائهما . هل تعتبر نتيجة هذا العنف شريفة ؟ - بعكس ذلك ، إنّ هلدر كمارة يؤمن بعنف المسالمين ، بسلطة الرأى العامّ التى أثّرت فى الصحافة فى فرنسا ، وأبعد منها فى الأنظمة العالميّة : هكذا ، حرّرت رابطة رجال القانون العالميّة محضرا يحصى اثنى عشر سجنا سياسيّا فى البرازيل .

الاّ أنّه لا يكفى أن يضع حدّاً للتعذيبات ، فانّ مأساة الجيل هى حالة البلاد الناميّة . وتحدّينا اليوم هو ان ننتزع ملايين من البشر من الظلم والبؤس : ويوجد بؤساء حتّى فى البلاد المتقدّمة . "

اعترف الرئيس جونسون أنّ ثلاثين مليونا من المواطنين الذين يعيشون فى الولايات المتحدة الأمريكية فى حالة غير لائقة . وهل لديكم علم بحالة بلدكم ، أنتم أيّها الفرنسيّون ؟ اتّحدوا لوضع خريطة فرنسا الحيّة ، لاكتشاف فقرائكم وعمّالكم الكادحين . وانطلاقا من لقائكم معهم ، ابحثوا عن سبل العدالة ، معطين هكذا المثل للبلاد المتقدّمة الأخرى .

وضعت محاضرة هلدر كمارة الحماسيّة هذا العدد البالغ من المستمعين الحاضرين فى قصر الألعاب الرياضيّة فى حالة يقظة وانتباه ، وردّد باسهاب هذا الكلام القاطع أغلب وسائل الاعلام ، بما فيها صحف اليمين ، لسن حالة المعارضة . وفى المجلّة الملكيّة ، أقرّ جاك بلانجى / Jacques Blangy بأنّ مشاعره قد اهتزّت

بكلام هذا الرجل البسيط ، ضعيف البنية ، الهزيل كالقصبة ، ولكنّه ناهض بقوّة داخلية عظيمة ... أليست هذه الشعلة الباطنيّة الملتهبة وهذه الأذرع المرفوعة نحو السماء وهذه الكلمات القاطعة كالسيف علامة على أنّ نبيًا قد قام ؟ " - أمّا دومينيك چاميه / Dominique Jamet ، فى صحيفة Le Figaro littéraire ، فرأى فى الأسقف هلدر كمارة رجلا من عرق المهاتما غاندى ومارتن لوثر كينج .

من هو هلدر كمارة فى النهاية ؟ قد نقول بردّة الفعل الأولى : " هو رجل ضالّ فى عالمنا الظالم ، ولكن لنقل بالأحرى : هو رجل عادل فى عالمنا الضالّ . "

وفى اليوم التالى للمحاضرة ، أى يوم ٢٧ مايو ، على بعد آلاف من الكيلومترات ، تبنّت جماعة أساقفة البرازيل بالأغلبيّة الساحقة (١٥٩ صوتا ايجابيًا و ٢١ صوتا سلبيًا و ٣ أشخاص امتنعوا عن التصويت) وثيقة رعائيّة شملت فقرة تندّد أيضا بالتعذيب . فانشرح قلب هلدر كمارة وشكر الله عندما علم بهذه المبادرة حال وصوله إلى ستوكهلم .

كلمة البابا بولس السادس

وما هو رأى روما ازاء الأحداث التى يندّد بها أسقف ريسيف ؟ قدّم الكاردينال روى ، رئيس لجنة العدالة والسلام البابويّة إلى البابا بولس السادس ملفًا ضخما جمعت فيه ووصفت بدقّة مائتان وستّون حالة تعذيب ، تذكر كلّ حالة اسم الأسير وسوء المعاملة الموجهّة اليه وآلات التعذيب المستعملة ضدّه . بالاضافة الى

التصرّفات التي ذكرها هلدر كمارة فى باريس ، تستشهد الوثيقة بغيرها : يعصر جلأدون أثداء نساء بكمّاشات ، ويتصنّعون فصيلة اعدام ليخيفوا الأسرى ويذيعون صيحات المعذّبين ، مسجّلة على آلة تسجيل ... يعذّب زوج أمام زوجته أو يهتك عرض زوجة أمام زوجها . وتشمل أحيانا الاعترافات التى انتزعت ووقّع عليها البند الآتى : " أقرّ بهذه التصريحات تلقائيا بدون اكراه جسمانى " .

هزّت هذه الاعترافات مشاعر البابا بولس السادس : وفى جلسة ٢١ أكتوبر سنة ١٩٧٠ العامّة ، دون أن يذكر البرازيل بالاسم ، أشار إليه عمليًا عندما ندّد بالتعذيبات قائلا : " يتحدّث الناس عن التعذيبات كما يتحدّثون عن وباء منتشر فى عدّة أنحاء من العالم ، ويقال انّ مركز هذه التعذيبات هو بلد يقوم بجهود تقدّم اقتصادي واجتماعى ، يقدّره الجميع ويحترمونه حتّى اليوم كبلد حرّ وحكيم . والآن ! لابدّ اذن من إدانة قويّة لهذه التعذيبات ، أى هذه الطرق العسكريّة الوحشيّة وغير الانسانيّة ، المستعملة لانتزاع اعترافات من شفاه الأسرى . هى اهانة ليس فقط للسلامة البدنيّة ، بل أيضا للكرامة الانسانيّة . وهى تذلّ معنى العدالة وعظمتها وتوحى باحساسات حقد وانتقام معدية ولا شفاء لها . فلابدّ من التنديد بها والغائها .

دفن حيًا

كانت تصريحات الأسقف كمارة فى باريس لها بالطبع صدى فى البرازيل : وابتداء من هذا التنديد بالتعذيب أصبح هلدر كمارة أبغض الناس للنظام البرازيلى

القائم . وشُنّت حملة ضدّه حيث كتبت احدى صحف ساوباولو : " أنّ الأسقف كمارة فضح البرازيل فى الغُربة " . ونعته حاكم هذه المدينة السيد / أبروه / Abreu، بـ " فيديل كاسترو بزىّ كهنوتى " متّهمه بأنّه فى خدمة الأحزاب الشيوعيّة فى أوربّا . أمّا الكاتب جستافو كورساوه / Gustavo Corçao فأوحى بأنّ البابا يقدّم لهلدر كمارة ليس قبّعة كاردينال ولكن قبّعة مكسيكيّة بثقبين لأذني الحمار الذى يتطابق الأسقف معه ...

ويقول هلدر " ازاء هذه الافتراءات ، كان محرّ ما علىّ أن أقدّم أقلّ تصحيح فى الصحافة . ثمّ فكر البعض فى أنّه لا داعى أن أعتبر نفسى ضحيّة . وعليه مُنعت كل وسائل الاعلام من أن تذكر اسمى ، وخلال عشر سنوات اضطرّت الصحافة والاذاعة والتليفزيون أن تمتنع عن نشر أيّة معلومات أو أيّة وثيقة آتية منّى أو تتحدّث عنّى . وكان محكوما علىّ بالموت المدنى ، وكأنه أصبح لا وجود لى . "

فى المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى ، كنّا نتحدّث كثيرا عن الكنيسة الخادمة والفقيرة . ولم أكن أعرف بعد أنّ الفقر الحقيقى ليس هو الذى نختاره : فكنت أظنّ خاصّة فى فقر قد يؤدّى إلى تجريد من المال . ولم أدرك أنّ الثروة التى كان يرغب الربّ أن يخلّصنى منها هى الشهرة . كنت أحظى بسمعة عظيمة فى بلدى : أصبحت أليف العظماء الرؤساء والوزراء ... وكان الناس يتحدّثون عنّى ناشرين صورتى فى كلّ الصحف والمجلاّت ، وكنت أبثّ عدة برامج شعبيّة فى الاذاعة والتليفزيون . والربّ ، الذى كان يعرف فى قرارة نفسى رغبتى فى الفقر ، اهتمّ بانتزاع ثروة الشهرة منّى . بغتة ، سقطت فى الصفر ، فى أقلّ من

الصفر ... "

ولكن ، من الشرّ قد ينبت الخير : فصوت الأسقف كمارة الذى من الآن لم يكن يمكنه أن يعبّر عن شئ في البرازيل ، سوف تنتفع منه بلاد أخري في الغربة . لم تكن محاضرته في باريس يوم ١٧ مايو سنة ١٩٧٠ إلاّ احدي توسّطاته الكثيرة عبر العالم .

الفصل السابع

العالـم رعيّتـــي

ترجع أسفاري في العالم إلى المجمع المسكوني الأخير : بموجب الصداقات التي ارتبطتُ بها بمناسبة المجمع ، حصلت على عدّة دعوات ، متوسّطها ثمانون دعوة في السنة ، ولكنّ ذلك يفوق طاقتي . ولذا ، اتّفقت مع البابا بولس السادس على أن أحصر آسفاري ضمن خمسة أسفار عالمية في السنة ، أتوجّه في كلّ سفر كبير الى عدّة بلاد .

أيّة بلاد ؟ - البلاد الصناعيّة أساسا : فهمت أنّه من واجبي أن أحرك البلاد الغنيّة حتّى أحصل على تغيير الأنظمة التي تسحق ثلثي البشريّة . لأنّه بدون تغييرات محسوسة في البلاد المتقدّمة لا يمكن أن نحصل على تقدّم حقيقي عندنا . ولذا ، كانت أسفاري إلى الولايات الأمريكيّة المتّحدة وكندا واليابان وأوربّا ولاسيما فرنسا .

حقّا ، انّها لمحنة بالنسبة إليّ أن أغيّر خلال أسفاري غالبا منطقة زمنيّة وطقسا، وأن أتكلّم لغات غير اللغة البرتغاليّة . ولكن ، " لست غريبا في أيّ بلد من بلاد العالم . وبما أنّ أبانا السماوي هو واحد ، فانّي أشعر بأنّي أخ لكلّ شخص

ما هي المواضيع التى نتعرّض لها ؟ انّها تتعلق أساسا بالعدالة والسلام : كوضع البلاد النامية وبلبلة التجارة العالميّة وسباق التسلّح وبيع الأسلحة والعمل المسالم وحماية حقوق الانسان ... لا يحصل هلدر كمارة على كفاءة خاصّة فنّية فى هذه المسائل ، ولكنّ كفاءته الانجيليّة تسمح له بأن ينطق فيها بحكم أخلاقيّ صائب .

الشركات الرأسماليّة العالميّة

كان أحد المواضيع التى يرجع إلى ذكرها الأسقف كمارة فى أغلب الأحيان ، وفى السبعينات خاصّة هو موضوع الشركات الرأسماليّة العالميّة . - ومعروف أنّ قانون هذه الشركات ، مثلما هي الحال فى الشركات الرأسماليّة الأخرى ، هو قانون الحصول على أكبر ربح ممكن . فبالنسبة إليها ، إنّ المسئوليّة الاجتماعيّة لا تكوّن رادعا لهذا القانون لأنّها لا تؤخذ بعين الاعتبار . عندما تنضب ينابيع الربح تُقفل الشركة ويرحل أصحابها الى مكان آخر . فتؤخذ القرارات بعيدا جداً عن المؤسّسة ، بالرجوع إلى محاضر وجداول وأرقام مجهولة أصحابها . " - يقول الأسقف كمارة : " انّى أصادف مديرى مصانع خاضعة لشركات رأسماليّة عالميّة يقولون لى : " لا يمكننا أن نتّخذ الاجراءات التى قد تبدو لنا عادلة وانسانيّة ، لأنّ أصحاب العمل موجودون فى أماكن أخرى ، إلى حدّ أنّنا لا نعرف دائما بالضبطّ من هم وأين هم . " إنّ الشركات الرأسماليّة العالميّة هى الامبراطوريات الحقيقيّة فى أيّامنا وتمثل أسياد العالم الحقيقيّين . وهى أقوى من الدول ذاتها .

وفى جلسة عن التنمية جمعت ممثّلى الأحزاب السياسيّة والكنائس والجامعات

الألمانيّة وبضعة أشخاص ألمانيّين مرموقين ، شرح الأسقف كمارة أنّه لو كانت البلاد المتقدّمة لديها الشجاعة الكافية للبحث عن مصادر ثرواتها لرأت أنّ هذه المصادر منغمسة فى بؤس العالم الثالث . فانتصب شابٌ وقال : " يوجد هنا بيننا ممثّلو ثلاث شركات كبيرة : Deutsche Bank, Mercedes-Benz and Volkswagen قد يفيدنا كثيرا أن نعرف ماذا وظّفت من أموال خلال العشر سنوات الأخيرة فى العالم الثالث ، وما هى الأرباح والفوائد التى جنتها من هذه العمليّة المالية . وعليه ساد الصمت بين أصحاب المصالح ! .. ولكنّ لسان حال الشباب تابع قائلا : " لدينا هنا محاضر هذه الشركات الكبيرة ، وذكر أرقاما تفيد أنّ الفوائد التى جُنيت من العالم الثالث تفوق بكثير المبالغ الموظّفة .

وفى زيورخ / Zurich ، إحدى مدن سويسرا ، جَرُؤَ هلدر كمارة أن يتّهم بنوك هذا البلد التى تقبل حسابات مرقّمة تخصّ بعض أثرياء من البلاد الفقيرة ، قائلا : " هل تعرفون أنّ هذا المال يحتفظ فى جوفه بدموع جماهير من البلاد النامية ، بعرقهم ودمهم ؟ " وحدث تدخّل مزعج من الاتّحاد السويسرى العامّ ، الذى تجاسر أن يوجّه انذارا للأسقف المحلى ، إذ انّه ، بحسب قرار اتّحادى " لابدّ من أنّ الوعّاظ الأجانب يمتنعون عن التدخّل فى مسائل السياسة الداخليّة " . فلا يجوز ازعاج صمت الخزائن ...

قابل الأسقف كمارة فى ألمانيا والسويد شبّانا كانوا يمارسون الضغط على الشركات الرأسماليّة العالميّة التى أقامت مركزها الاجتماعى فى بلدهم . وكانوا قد اشتروا بضعة أسهم بمدخّراتهم ، ليعطوا لأنفسهم حقّ المشاركة فى جمعية المساهمين السنويّة العامّة . وقبل هذا الاجتماع ، كانوا قد وجّهوا رسالة لمساهمين آخرين

بالمعنى الآتى : " نريد ، أن نثتثمر أموالنا مثلكم بأكمل فائدة ، ولكن ليس بأىّ ثمن ، ليس مقابل سحق أشخاص من البلاد النامية . ولذلك ، ندعوكم أن تحضروا الجمعيّة العامّة وأن تنتبهوا إلى المعلومات التى سوف نقدّمها ... " ولكنّ ، الشركات المعنيّة غيّرت برنامجها فوراً بصفة أن يكون حقّ الكلام لكبار المساهمين فقط...

واستمر هلدر كمارة بالبديهة الحاضرة دائما يلح فى أن تكون الانشاءات الرهبانيّة متيقّظة لتوظيف مالها ، أى أن تستعلم عن تخصيصها وعن مصدر بعض أرباحها .. وهذه توصية لها قيمتها الخاصّة عندما توجّه الى أعظم المنشاءات الكنسيّة ، أعنى الڤاتيكان ، حيث الأسقف الشجاع لم يتردّد أن يثير المسألة .

وغالبا ما أثّرت كلمات هلدر كمارة فى مستمعيه من شباب أوربّا . فكانوا يقولون له : " سنأتى عندكم لنساعدكم " وكان جوابه " أمكثوا عندكم ، ساعدوا مواطنيكم على أن يدركوا أنّ جذور الشرّ الذى نعانى منه مطمورة فى أرضكم نفسها ، فى قلب البلاد الغنيّة ، فى فوائدها وممارساتها . لابدّ بالأخصّ من تغيير سياسة التجارة العالميّة والتخلّص من تنقيص قيمة موادّنا الأوليّة ، التى تحدّد أثمانها فى كبار الساحات الماليّة : فعندما نقارن بين الأموال الموظّفة فى أمريكا اللاتينيّة مع المال الذى يعود إلى الولايات المتحدة الأمريكية تلاحظ هذه السخافة : أنّ أمريكا اللاتينيّة هى التى تساعد أمريكا الشماليّة : أجل ، قد انتهى الاستعمار السياسى ولكنّ الاستعمار الاقتصادى لا يزال قائما .

من شيكاغو الى كارگسُون (فرنسا)

بالاضافة إلى المواضيع الهامّة عن العدالة والسلام فانّ بعض المحاضرات تتناول مواضيع أكثر تحديدا : فى فيرِنزِه (ايطاليا) ، يشارك الأسقف كمارة فى ختام مسيرة خمسين ألف شابّ " لصالح العالم الثالث " ، ويحثّهم على أن يلتزموا بكفاح مسالم ولكن جذرى لاقامة علاقات عدالة بين الشمال والجنوب . وقام بجانب هلدر كمارة نبيّان آخران من جيلنا : الأخ روجيه ، رئيس الدير البروتستانتى المشهور فى فرنسا ، الذى ارتبط معه الأسقف كمارة بصداقة أثناء المجمع الڤاتيكانى ، ورؤول فولرو / Raoul Follereau ، رسول البرص ، الذى قال لرئيسَي أمريكا وروسيا : " ليعطنى كلّ واحد منكما طائرة قصف أى قاذفة من قاذفاته وأنا أعالج كلّ برص العالم " .

وفى مونترو (سويسرا) ، أثناء المؤتمر العالمى الخاصّ بالمساعدة المسكونيّة لمشاريع التنمية ، ألحّ الأسقف كمارة فى مسئوليّة المسيحيّين . لأنّ هؤلاء الذين يكوّنون العشرين فى المائة من سكّان الأرض ، والذين يركّزون بين أيديهم ثمانين فى المائة من موارد العالم ، يقيمون فى نصف الكُرة الأرضيّة الشمالى ، وهم من أصل مسيحى ." أىّ تأثير قد تحدثه المسيحيّة فى اخوتنا الذين فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينيّة ، اذا أرادوا أن يحكموا على الشجرة من ثمارها ؟ وأكثر حزنا من ذلك : نحن ، معشر المسيحيّين ، قدّمنا مشهد كفاحاتنا وخلافاتنا ، التى تمزّق هكذا معنويًا " قميص المسيح الغير مُخيط " ... أيّة شهادة عظيمة يمكننا أن نعطيها اذا مارسنا معًا نصائح نصوص ميديللين الجميلة (التى حرّرها أساقفة أمريكا اللاتينيّة) ونصوص أوبسالا Upsala (اجتماع مجلس الكنائس المسكوني)!"

في شهر مارس سنة ١٩٨٠ ، رجع هلدر كمارة إلى سويسرا ، فدعاه أصدقاء له كاثوليك وبروتستانت ليحدّثهم عن مشكلة العمّال الموسميّين ، الذين لا يعملون إلاّ تسعة أشهر سنويًا ، ولا يُسمح لهم أن يحضروا معهم عائلاتهم . فقال الأسقف كمارة للمسئولين : "سويسرا عزيزتي ، دعيني أسألك : " هل من الانسانيّة بشيء أن تقبلي عمّالا يعيشون بدون زوجاتهم وأولادهم ؟ ... اذا سمحت للجميع أن يحضروا سوف تكونين أقلّ ثروة ، ولكن ما هي ثروة الذهب . أجل ، لابدّ من المال ، ولكن بشرط أن يظلّ خادما وليس سيّدا " .

في الشهر التالي كان في باريس ، حيث دعته جمعيّة " المعونة الكاثوليكيّة " في اليوم الذي تدعوه " باريس أرض ترحيب أو منفى " . بعد محاضرته اقترح أنّ باعثي نشاط أعمال الاحسان يزورون حي نقطة الذهب Goutte d'or [1] ليدركوا الحالة محليًا - زار هلدر كمارة هذه المنطقة وقال : " رأيت عمارات أنتزعت منها أسلاك الكهرباء ، وقُطع الماء وألغيت التدفئة . سوف يتخلّص المسئولون ، في القريب العاجل من الفقراء والمهاجرين ليجدّدوا الحيّ بعد إعادة بناء العمارات ، ولن يكون في مقدور الفقراء والمهاجرين أن يواجهوا الأجور الجديدة : البؤس ، يوجد في كلّ مكان ! أوحت هذه الزيارة إلى قلب " الشاعر " ، الأسقف كمارة ، ببضعة أسطر :

يا ليتنا لا نقبل في أنفسنا نقطة من البغض !

---

(١) يذكّر هذا الاسم الكروم المشهورة التي كانت سابقا تمتدّ على منحدرات هذا التلّ ، في شمال العاصمة الشرقي . واليوم ، هي منطقة أغلب سكّانها مهاجرون يعيشون في أوضاع غير مستقرّة في البؤس .

يا نقطة الذهب!
لو أمكننا أن نزلق نقطة من ذهب صرف ،
من الذهب الصرف الذى هو الحبّ الحقيقى ، للبشرية
وفى الحىّ ،
نقطة من ذهب الحبّ لاخوتنا ! ...

انّ هلدر كمارة هو أيضا صديق اللجنة الكاثوليكيّة لمكافحة الجوع وخدمة التقدّم ، التى تدعم مشاريع تقدّم ونمو فى البرازيل .

فى يوم ١٧ مارس ١٩٧٩ وفى كنيسة سيدتنا العذراء ، فى باريس شنّ الأسقف حملة فترة الصوم الكبير التى تؤيّدها اللجنة المذكورة ، أثناء القدّاس الذى أقامه مع الكاردينال مارتى ومائة كاهن من فرنسا والعالم الثالث .

وقريبا من كنيسة سيدتّنا (العذراء) فى باريس ، ذهب الى Le Collège de France حيث دعاه الأستاذ چاك روفييه / Jacques Ruffié ليتكلّم فى كلية علم الإنسان ، وبعد المحاضرة ، اصطحب الأستاذ هلدر كمارة إلى مسقط رأسه ، أى إلى مدينة كاركسون . واستقبلوه هناك استقبالا فخما .. وظهر الخطيب بكلّ بساطة ، ليس راكبا سيّارة بل سائرا على الأقدام ، على رأسه قبّعة العمّال ، وحول عنقه وشاح من صوف . رفع قبّعته ليسلّم على العمدة مثل الفلاّح الذى يلتقى بنائب مجلس النوّاب فى سوق مقاطعته ...(وكلّ هذه علامات البساطة والتواضع عند هذا الرجل العظيم). وعندما استقبله العمدة رسميًا ، رغم اقراره بأنّه لاأدري (أى ملحد تقريبا)، قدّم زائره المشهور ، الأسقف كمارة ، كأنّه واحد من الأنبياء .

لقاء مع بليوشتش فى اذاعة " نداءات "

نحن مدينون لبرنار بيفو / Bernard Pivot بأهم نداء لهلدر كمارة والذى لم ينشر بعد ، رغم أنّه كان يستحقّ ، كنداء ، مكانا خاصًا جداً . كان الناشر نفسه ، Le Seuil ، قد أصدر فى ربيع سنة ١٩٧٧ ، كتابى اعترافات نابعين من عالمين مختلفين ، هما : " ارتدادات أسقف " لهلدر كمارة و " فى حفلات التاريخ التنكّريّة " لليونيد بليوشتش / Leonid Pliouchtch . فى هذا الكتاب الأخير ، كان الرياضى الاشتراكى المشهور ، المنفى فى فرنسا ، يقصّ ذكرياته كاشتراكى مسجون فى مستشفى أمراض نفسيّة . - وضمن برنامج إذاعة يوم ١٠ يونيو سنة ١٩٧٧ ، باسم " نداءات " وضع الناشر بيفو وجها لوجه رسول يسوع المسيح وتلميذ كارل ماركس .

وبالأمس يوم هذه الاذاعة ، أفضى رئيس الأساقفة إلى الصحفيّين بذلك : " انّى أسرّ بهذا اللقاء : رغم أنّ فلسفتنا مختلفة ، إنّنا متعطشان بنفس العدالة وبنفس الاهتمام بالدفاع عن الكرامة البشريّة . انّى أشعر بأنّى أخ لبليوشتش ، إلاّ أنّى غالبا أحسّ بقربى من الملحدين : إذا أحبّوا الانسان فهم يحبّون الله دونما يدركون ذلك .

يوم الجمعة ، فى الساعة التاسعة والنصف مساء ، ظهر على شاشة هوائى التليفزيون رقم ٢ هلدر كمارة منشرحا وبليوشتش رصينا ، مرسوما بالمحنة . وطلب الناشر بيفو بالتوالى أن يقصّ كلّ منهما مسيرته . ثمّ دعا الرفيقين أن يطرحا الأسئلة الواحد على الآخر .

قال هلدر كمارة لبليوشتش : " عندى طلب أقدّمه اليك أخويًا : انّى أقابل ماركسيّين غالبا جدًا على طريقى ، ومما لا يسعنى أنّ أفهمه هو أنّ ماركسيّين أذكياء ، بدلا من أن يردّدوا ما قاله ماركس ، لا يحاولون أن يعملوا ما كان مزمعا أن يفعله ماركس اليوم لو كان معنا . دعنى أعطيك مثلين واقعيّين ... المثل الأوّل هو الرباط بين الديانة والاغتراب . قد وجد هذا الرباط حقًا ، وقد يوجد أيضا بعد . ولكن اليوم فى المسيحيّة كما فى جميع الديانات ، توجد جماعات لا ترضى بأن تحى ديانة تؤدى إلى الاغتراب ، ولكنها تحاول أن تعيش ديانة تكون من الداخل قوّة رجاء . لماذا لا نعترف بأن ديانة واغترابا لا يرتبطان ضرورة الواحدة بالآخر ؟ " " وكذلك بالنسبة إلى الاشتراكيّة والمادّيّة الجدليّة ، فتبرهن الحقيقة أنّه لا يوجد رباط ضرورى بينهما ، هناك اشتراكيّات تودّ ألاّ تكون مادّية . "

فأجاب بليوشتش : " قرأت حديثا كتاب ألبرت شفتزر / Albert Schweitzer: " ثقافة وأخلاق " . انّ شفتزر جدلىّ ، وهو أيضا على وجه ما مادىّ ، قد يكون للمسيحيّة علاقة مع هذه الحقائق : فالأهداف التى حدّدها ماركس للمجتمع قريبة جدًا من الأهداف المسيحيّة . وأنا شخصيًا ، بصفتى ماركسيًا ، أظنّ أنّ معنى الحوار هو أن يتحرك الانسان وينتقد نفسه دائما ، وأن يتقدّم . أمّا المادّية ، فتقوم على المساعدة بطريقة عمليّة ، واقعيّة . ليس المقصود منها أن تعطى الناس طعاما أكثر فأكثر ، وأن تمدّهم بكسوة أفضل فأفضل . لابدّ من أنّ الناس ينمّون شخصيّاتهم بصفة خاصّة ويجعلون ملكاتهم الروحيّة تنشرح ، بدلا من أن يكافحوا لاحتياجاتهم المادية فحسب " .

بعد هذا الجواب استشار هلدر كمارة بليوشتش فى خطوة حديثة فقال : " تلقيت حديثا دعوة من اخوانى الأرثوذكس المقيمين فى موسكو لاشترك معهم فى اجتماعات " عن عمل دينى لسلام ثابت " . وكان جوابى " أنّى لن أذهب إلى هذه الاجتماعات ، لأنّى لا أتمكّن من الاقتناع بأن نحصل معا على حريّة الجدال التى لابدّ منها . فضلا عن ذلك ، انّى لا أتكلم اللغة الروسيّة . "

فقال بليوشتش " أظنّ أنّ موقفك ليس سليما تماما . أجل نعلم أنّ الدستور الشيوعى ليس إلاّ حبرا على ورق ، ولكنّنا جعلنا من هذا الورق سلاحا فى كفاحنا لصالح حقوق الإنسان . والحالة كذلك أيضا مع اتّفاقات هلزنسكى ، حيث يعدّ هذا الورق أيضا ركيزة نستخدمها . إذن ، عندما يدعونك ، لابدّ من القبول ، واستعمال نفس كلام الذين يلتمسون حضورك معهم . إذا عرضوا أقوالا حسنة ، اقبل عرضهم توّا . قل لهم مثلا : " إنّكم تؤكّدون أنّ الحوار بين الشيوعيّين والمسيحيّين قد بدأ . حسن ! لننظّم جدالا ينقله التليفزيون بين مسيحيّين وماركسيّين ! أنتم تقولون : إنّ القوى الرجعيّة تكذب ، مدّعية أنّه يوجد مستشفيات أمراض نفسيّة متخصّصة . حسن ! دعونا نتحقّق من ذلك ! اسمحوا لنا أن نزور زوجة الراعى المعمدانى چيل/ Gilses ، من كييف ، المسجون حاليًا ، أو أن نتلاقى مع فريق الشبّان الأرثوذكسيّين الذين نظّموا ناديا فى موسكو ، وأدخِل اثنان منهم فى مستشفى أمراض نفسيّة . وعليك أن تزور أيضا كهنة هدّدوا باعتقال، مثل جليب يكونين Gleb Yakounine . وبالاختصار، يمكنك أن تقول : بما أنّ القوى الرجعيّة تكذب، يمكننى أن أساعدكم على إعادة الحقيقة إلى نصابها ."

فأجاب كمارة : إنّى فهمت جيّدا ، ولكن دعنى أقول لك الحقيقة : لم يمكـــنك

أنت المكوث فى موسكو ، والتزمت أن تهجرها . إذن ، إذا ذهبت أنا إلى موسكو ، دون أن أتكلم اللغة الروسيّة ، سوف أكون بين أيدى التراجمة ، وسوف يمكن لوكالة الأنباء تاس أن تقول على لسانى ما تريد ... "

فى نهاية برنامج هذه الاذاعة ، طلب برنار بيفو من كلّ من مدعوّيه أن يجيبا عن السؤال الآتى : " ماذا تنتظر من المستقبل ؟ " فقال كمارة : " ما أرغب فيه هو أننا نحن ، الرجال أصحاب الارادة الحسنة فى العالم أجمع ، من كلّ العروق وكلّ الأديان ، نصل ، لا أقول أن نبنى الجنّة على الأرض ، بل أن نخلق على الأقلّ عالما أكثر عدالة ، لأن بدون عدالة لن نحصل على السلام . وهذا ما يقرّبنى من هذا الصديق الذى يشاركنى نفس الاحترام لكرامة الانسان . "

وقال بليوشتش : " حاليًا تتأهّب بالأحرى أحداث فظيعة . ولكنّ كلّ شىء متعلّق بنا . والخطأ ليس هو خطأ الآخرين البعيدين فحسب ، هو أيضا خطأنا نحن الذين هنا .

فاذا كافح كلّ منّا من أجل مجتمع أفضل ، سوف نصل إلى نتيجة . وإلاّ قد تشبّ حرب نوويّة حراريّة . إنّى أشارك وجهة نظر شفتزر : " إن لم يمل ما نعرفه إلى التفاؤل سوف تضطر ارادتنا أن تقودنا اليه " .

وعرض بيفو سؤالا على غير استعداد :

" إنّ شيئا يدهشنى ، أيّها الأسقف كمارة ، بشويك الكهنوتى تقيم دعاية

للمطران لوفيڤر / Lefebvre . وعليه ، قد تعرف فرنسا بأنّك محافظ . "

" الفرق بيننا هو أنّ سيادته يتشبّث بعد بالمجمع التريدنتيني ، بينما أنا من الذين يفكّرون منذ الآن في المجمع الڤاتيكاني الثالث . "

" إنّ ملايين من المشاهدين ينظرون إليك . ماذا تريد أن تقول لهم بعد ؟ "

" سوف أقول إنّ فرنسا لها مسئوليّة رهيبة : إنّها درّست العالم الحرّية . إذن ، يا ليتكم تظلّون في حالة الانذار ! "

عبر فرنسا

تقع احدى جولات هلدر كمارة المهمّة في فرنسا في غرب هذا البلد من ١٥ إلى ٢٠ يونيو سنة ١٩٨٣ ، تحت اشراف الجريدة الأسبوعيّة La Vie .

أمضى النهار الأوّل في مدينة رين / Rennes ، حيث نزل من الطائرة (بعد رجوعه من ستوكهلم إلى باريس في الصباح) . وبعد الظهر ، ترأس ختام تجمّع لأعضاء La vie montante بحضور ستّة آلاف متقاعد ، " زملائه المسنّين الأعزاء " . في المساء وفي نفس قاعة الألعاب الرياضيّة وأمام أربعة آلاف شخص، لفت النظر إلى العلاقة التي تربط البريتانيا/ La Bretagne بالبرازيل ، في الساعة التي كان فيها كاهنان بريتانيّان ، أريستيد كاميو / Aristide Camio وفرنسوا جوريو et François Gouriou ، مسجونين في برازيليا . " وكانت

جريئتهما مجرّد مساعدة فلاّحين مرهقين يدافعون عن أرضهم التى هى وسيلتهم الوحيدة للحياة . " ثمّ قرأت زوجة رجل شيلى منفىّ رسالة موجّهة إلى الكاهنين تقول فيها : " إن البريتانيا فخورة بالكفاح الذى تقومان به . إنّها تعتمد عليكما ، فاعتمدا عليها . "

وتتتابع الاجتماعات الأخرى مع عدّة آلاف من المستمعين وخارج هذه الاجتماعات ، يقوم الأسقف كمارة بعدّة اتّصالات مع فئات من الناس ومع مناضلين . تقابل فى مقاطعة فرنسيّة مع ١٥٠ مزارعا ، وفى مدينة رين ألقى نظرة خاطفة على الفقر الجديد الذى اجتاح أوربّا القديمة : إنّ مندوب " المساعدة الكاثوليكيّة " يذكر له رقما : بين ٥١٦٦٦ شخصا استقبلتهم هذه المؤسّسة فى فرنسا كان ٢٥٪ منهم لا يحصلون على شيء للحياة وفى مدينة لافال Laval ، أقام حوارا مع المسئولين عن خمسة عشر فريقا من العالم الثالث يجهلون بعضهم بعضا ، فيوحى إليهم بأن يجتمعوا معا ولو مرّة فى السنة . وتقابل مع بحّارة وشبيبة عمّال وأعضاء جمعيّات كاثوليكيّة ...

كان أحد أهداف سفره أن يذهب ليتأمّل ضريح الأب لويس جوزيف لوبريه / Louis-Joseph Lebret ، الذى كان ضابطا فى الأسطول الحربى وأصبح فيما بعد راهبا دومينكانيا . أسّس هيئة الشبيبة البحريّة الكاثوليكيّة وأنشأ جريدة Economie et Humanisme وأوحى إلى حدّ كبير أفكار المنشور البابوى الخاصّ بترقية الشعوب . ولمّا كانت تربطه صداقة حميمة بالأسقف كمارة ، ساعده بخبرته فى المجمع المسكونى .فكان الأسقف يسميه " أميره البحرى " ويسمّى نفسه " نوتيه الفتى". أثناء القدّاس الذى احتفل به فى قرية عائلة الأب لوبريه ، ردّد قارىء

كلمات هذا الأب التى كانت كوصيّته وتتّفق تماما مع أعمق مشاعر هلدر كمارة ، وإليكم هذه الكلمات :

" إنّى أحببت الثلاثة سكّيرين الذين عرفتهم فى قريتى الصغيرة . أحببت هذه الجارة الفقيرة التى لم يكن لديها ملابس لتذهب بها لحضور القدّاس .. أحببت الألمان الذين كنّا حديثا أغرقنا سفينتهم ... أحببت الصيّادين الذين قضت عليهم آليّة حرفتهم . أحببت سكّان أكواخ مرسيليا وسود أكواخ ريو وهنود الغاليّة . أحببت الأغنياء الذين جعلتهم ثروتهم عبيدا ... كلّهم بشر ، بؤساء ، ليس إلاّ شهادة المحبّة التى يمكنها أن تخلّصهم ... "

بعد رتبة القدّاس ذهب الأسقف يضع وردة حمراء على بلاطة ضريح صديقه الأب لوبريه . وذكر فى هذه اللحظة الأب كوزماوه / Cosmao ، مؤسس مركز لوبريه ، آخر عبارة لفظها البحّار القديم : " جميلة هى الحياة . لابدّ من أن نغامر طوالها من أجل الآخرين . "

فى شهر مايو سنة ١٩٨٥ ، كان هلدر كمارة فى باريس ، فدعاه رئيس الجمهوريّة لندوة " الحريّات وحقوق الانسان ". قابل هناك شخصيّات من جميع القارات ، خاصّة الذين حازوا على جائزة نوبل للسلام : مادره تريزة / Madre Teresa ، وبيريز اسكيڤيل / Perez Esquivel ، والمطران دسموند ترتو et Mgr. Desmond Tutu ... وقال فى هذه المناسبة : " قد بدأنا مفاوضات لنوع من جمعيّة عالميّة لحقوق الانسان . "

وانتهز هذا السفر ليعرب عن اجلاله لاحدى ضحايا الظلم ، الأب أندريه چارلان / André Jarlan ، كاهن من الأڤيرون / Aveyron اغتاله عساكر يوم ٤ سبتمبر ١٩٨٤ في سانتياجو / Santiago ، أثناء مطالعته الكتاب المقدّس ، فتوجّه الى رينياق / Rignac مع الكردينال مارتي وعائلة الكاهن ليصلّي على حجر قبر الفقيد تعلوه بلاطة من المرمر مرسلة من الشيلي ومكتوب عليها : " أندريه ، لن ينساك أبدا شعب الڤكتوريا . سوف تبقى دائما بين الفقراء ، أنت الذى اختار أن يموت من أجلهم ، مثل المسيح الذى مات من أجلنا . "

وسردت هذه الزيارة مجلّة أسبوعيّة قائلة : " كانت هذه الزيارة للأسقف كمارة لحظة تأثّر بالغ . فى المدفن ، أثناء لحظة ، ضاق نفسه من النحيب بينما كان يتوجّه بالكلام إلى الفقيد ، وكان فى الصباح قد علّق على كلمة ترتوليانس / Tertullien: " دم الشهداء زريعة للمسيحيّين . "

في سنة ١٩٨٧ ، رجع حاجّنا إلى فرنسا ، ورغم بلوغه سن الثامنة والسبعين، فقد فاجأ مستمعيه ".بنشاطه وروحه المرحة وسحر اشاراته الذى لا يقاوم ، وحماس حركته .. إلى حدّ أنّه قلب المذياع . " هذا ما ذكرته Peuple libre ، مجلّة أسبوعيّة كاثوليكيّة .

الخطيب

علاوة على الرسالة يوجد الرسول . يتكلّم هلدر كمارة بكلّ شخصه : بعينيه ويديه وقلبه . ها هو آت ، رفيع وقصير القامة ، فى ثوبه الكهنوتى رملىّ

اللون ، عيناه محاطتان بزرقة من التعب ، وبغتة ينتصب هذا الشبح البشرى ويضطرم . تخرج من فمه كلمة من نار ، نار الانجيل ، تعزّزها حركات يديه ودفع ذراعه ، وسبّابته مدفوعة نحو السماء التى يستشهد بها . وكما يقوله هو : " انّى لا أتكلّم الأ بلغة كمارة : بضع كلمات ، عدّة حركات وكلّ قلبى " .

تهتّز مشاعر الجمهور لكلامه ، وتردّد بصوت واحد أغانى چون ليتلتن . وتنتهى السهرة أحيانا بالصلاة الربيّة يتلوها سلام الصلح الذى يتبادله المشتركون فى الاجتماع .

يكثر الشباب بين مستمعيه : إنّهم مولعون بالصراحة والجرأة والاعادة إلى بساط البحث ، يولّد فيهم الخطيب التأثر والحميّة . إلاّ أنّ بعضهم ينطلقون باقين على جوعهم ، كانوا يتمنّون الحصول على ايضاحات عن الكفاح المزمع أن يقوموا به ، فضلا عن أنّ الأسقف كمارة ينصح الذين يعرضون أنفسهم للخدمة فى العالم الثالث قائلا : " لو لم تكن دعوة خاصّة ، امكثوا فى مكانكم لتساعدوا البلاد الغنيّة على ادراك واجبها نحو البلاد النامية والفقراء والمهاجرين الذين يعيشون بقرب من الأغنياء . "

ولكن ، فيما بعد يشعر هؤلاء الشباب بهمّة ونشاط : أوقد هلدر كمارة فيهم شعلة أو أحياها . تشهد لنا بذلك فرنسواز/ Françoise من مدينة ليل / Lille ، وعمرها ستّ عشرة سنة فتقول : " رجعت من الاجتماع معتقدة أنّه لا ينفذ الى شئ . والغريب فى الأمر هو أنّى دهشت فى الغد عندما عرضت تلقائيًا على مدرسة هذا العرض : " لى رغبة فى أن أنظّم اجتماعا لكلّ شباب المدينة الذين

يريدون أكثر عدالة فى العالم . فأدركت آنذاك أنّى كنت ممتلئة من رسالة الأسقف كمارة . "

هكذا أمكن هذا الصوت الذى كان الطغيان يريد أن يسكته أن يدوى عبر العالم . مثلما أمكن الرسل ، الذين طردوا من فلسطين ، أن ينشروا الخبر السارّ فى كلّ الشرق الأدنى . أو ، فى عصرنا ، مثل الرهبان والراهبات المطرودين من فرنسا فى سنة ١٩٠٥ ، الذين مهّدوا الطريق لرهبانيّاتهم أن تنتشر وتنشىء فروعا فى قارات أخرى ، خاصّة فى أمريكا اللاتينيّة حيث قال لى بعض كهنة : " لابدّ لنا من أن نقيم تمثالا للأب كومب / Combes . "

هل تقام مسلّة اكراما للقادة البرازيليّين ؟

الفصل الثامن

العبيد الجدد

" القشّة والرافدة " ... يعرف الأسقف هلدر كمارة هذا المثل : عندما يندّد بتعسّفات العالم الغنيّ ، لا ينسى أن يحثّ الناس على توجيه امتحانهم إلى بلده بالذات .

يقول : " اننّا فى البرازيل نخضع لاستعمار داخلى يسمح لجمعيّات صغيرة ، لحفنة عائلات ، بأن تبنى ثروتها على بؤس ملايين من مواطنيهم . ولا تخلو الكنيسة من مسئولية فى هذه الحالة : كنّا مهتمّين بحماية النظام الاجتماعى الى حدّ أننا ، خلال مدّة طويلة ، ظللنا مرتبطين بالسلطة وبالأغنياء ، وكان يتراءى لنا أنّ هذه كانت أفضل طريقة لجمع موارد لاعانة الفقراء . كنّا نقول لهم : " اصبروا وحاولوا أن تطيعوا ، إنّ أحزان هذه الحياة لا تقارن بأفراح الأبديّة . "

إنّ تواطؤ المسيحيّين مع المظالم الهائلة التى تسحق الفقراء حملت كارل ماركس على التأكيد أنّ الدين هو " أفيون الشعب " ، بينما يجب أن يكون قوّة تحريره .

انّ خطيئتنا الاجتماعيّة الكبري هي مأساة الأرض . هكذا ، انّ البرازيل ، الذى يحظى بامتداد قارة ، ومساحته تضاهى ستّ عشرة مرّة مساحة فرنسا ، مزوّد بأكبر ذخيرة للأراضى البكر القابلة للزرع فى العالم . إلاّ أنّه بلد الذين لا أرض لهم ، فثمانية فى المائة فقط من سكّانه يملكون أرضه . لأنّ امتلاك الأراضى واستثمارها اجتاحا قطرنا ، وقد خصّص كبار ملاّك ومؤسّسات عالمية مساحات هائلة للانتاج بهدف التصدير ، وليس لتغذية بلدنا الذى يضطّر أن يستورد لاستهلاكه الخاصّ . هكذا ينمو زرع الصوجة الذى يصدّر ليطعم العجول والخنازير والدجاج والكلاب والقطط فى أمريكا وأوربّا ، بينما كان ممكنا أن يعطى لبن الصوجة لجميع أطفال البرازيل . وتصلح مساحات أخرى لتربية الدواجن بطريقة مركّزة ، بهدف تصدير اللحوم . يقول الفلاّح : " عندما يحضر الثور يغيب الانسان . "

يلحّ هلدر كمارة فى أنّ هذا الاتّجاه تأصّل ويتزايد على يد نظام الحكم العسكرى ، الذى ابتكر " مشاريع فرعونيّة " نظير الطريق المشهور الذى كان مزمعا أن يعبر الغابة البكر الشاسعة عبر الأمازون . ولكنّهم عدلوا عن هذا المشروع أثناء تحقيقه ، وقد نما النبات اليوم وغطّى نصف الطريق . وبنى العساكر أيضا سدودا عظيمة ، غمرت آلاف هكتار خصبة ، واتّفقوا مع الحكومة الألمانيّة على برنامج لاقامة عشرة مراكز نوويّة . وفى جزيرة ساو لويس ، فى شمال شرق البرازيل ، شيّدوا مصنع ألومنيوم جبّارا يستهلك نصف طاقة دولة مارانهاوو / Maranhao الكهربائيّة (وعدد سكّان هذه الدولة مليونان ونصف)، بينما تنقص الكهرباء فى المنشآت الصغيرة والمتوسّطة ، وهى محدودة الاستهلاك فى المنطقة . واستدانت الدولة لتموّل هذه الأعمال باهظة التكاليف ، ثمّ ، لتخفّض دينها ، نمت أكثر فأكثر زراعة الموادّ الصالحة للتصدير على حساب زراعة المأكولات . "

القتلةالمأجورون

انّ الأراضى التى استولت عليها المؤسسات الكبيرة ليست خالية ، بل انّها تغذّى فلاحين يعملون فيها جيلاً بعد جيل ، ولكن بدون سند ملكيّة قانونى . تأتى السلطات بأوراق رسميّة وتطرد الفلاّحين . هكذا طرحت جماهير من صغار الملاّك (ملاّك ، ولكن بدون وثيقة) ، وأصبح أعضاء هذه الجماهير ، زارعى الأرض ، يطوفون للبحث عن وسيلة للحياة .

" يلتحقون بالمدن ، آملين أن يجدوا فيها عملا للأبوين ومدرسة للأطفال والشباب ومستشفى لمن يصيبه مرض ، ولكنّ خيبتهم مريعة . يجتاحون أرضا شاغرة ، يبنون عليها أكواخا ... يوجد فى مدينة فورتليزة حيث ولدت مائتان وأربعة عشر كوخا ، وحتّى هنا ليس الفلاّحون فى أمان من الطرد ، لأنّ الحكومة تصمّم خرائط لتنظيم مدن حتّى تجلب السيّاح . فالفقراء يشتّتون وينبذون دائما إلى أبعد . "

ويصمد بعض الفلاّحين ازاء اجتياح أرضهم ، وينظّمون أمرهم ويطالبون بالاصلاح الزراعى ، ولكنّ كبار الملاّك ومديرى المؤسّسات العالميّة لا يتردّدون فى اللجوء الى أفظع الوسائل ليدافعوا عن مصالحهم .

قال رئيس الدولة نيفس / Neves ، بعد انتخابه سنة ١٩٨٥ ، : " إنّ مشكلة الأرض قد شربّت دما أرض البرازيل " ورفض اجتماع أساقفة البرازيل " استراتيجيّة ارهاب نظمتّها أقلّية من المتزوّدين بالمال ، المعارضين للاصلاح الزراعى ." وحسب

الحكومة ذاتها ، قتل مائتان وستّة وثمانون شخصا فى نزاعات زراعيّة سنة ١٩٨٦، كان أغلبهم من الفلاّحين أو من بعض مرشديهم : " فعندما كان يتقدّم زعيم نقابى أو بالأحرى عندما كان شخص متعهّد باتّباع الانجيل يتولّى حماية الاصلاح الزراعى ، كان يصاب بتهديدات وأحيانا بالموت . أجل ، لدينا شهداء كافحوا للعدالة . "

كان الغزاة يطوّعون رجالا مأجورين لحماية مصالحهم الاقتصاديّة وينظّمون ميليشيات ، حيث يتلاقى أعضاء سرايا الموت مع رجال مأجورين آتين من فرق العصابات ، تغريهم علاوة التطوّع . ومثلما كانت الحال فى أل " Far West " فى القرن التاسع عشر ، كان هؤلاء الرجال المأجورون يغتالون فى وضح النهار، فى صلب المدينة . هكذا فى يوم ١١ يونيو سنة ١٩٨٧، فى منطقة بيليم / Belem ، خرج من منزله مع زوجته وأولاده محام شابّ يبلغ من العمر ٣٨ سنة فوجد فى انتظاره شخصين ، فرّغا رشّاشهما الصغير عليه ، فوقع على الأرض مصابا فى الرأس بثلاث رصاصات قاتلة . - ولم يُرحم الكهنة : يشهد على ذلك ما حدث للأب تاڤاريس / Tavarès ، راهب يسوعى أسود وشابّ ، الذى قتل يوم ١٠ مايو سنة ١٩٨٦ . كان باعث النشاط فى رعائيات الأرض .

تجهل فرنسا تماما هذا النوع من الارهاب ، رغم أنّ وسائل الاعلام نشرت نبأ الأبوين كاميو وجوريو ، اللذين تضامن معهما الأسقف هلدر ، وكان هذان الكاهنان الفرنسيّان ، اللذان يخدمان فى أبرشيّة الأراكخو / Aracaju فى المنطقة الأمازونيّة ، قد اعتقلا وسجنا يوم ٣١ أغسطس سنة ١٩٨١ : أخذت السلطات عليهما بأنّهما جعلا الفلاّحين يدركون حقوقهم ، وحرّضاهم هكذا على مخالفة

القوانين واتّهمتهما السلطات بالشيوعيّة ، وحتّى تبرهن على ذلك ، فتّش بعض رجال الشرطة مقرّ الأب كاميو وأبرزوا وثيقتين من وثائق الحزب الشيوعى البرازيلى، كانوا قد أخفيهما من قبل بين أوراق هذا الكاهن ! أثارت دعواهما سندا شعبيًا عظيما واحتجاجا حازما من الأساقفة البرازيليّين والفرنسيّين وعونا من هيئات عديدة تطالب بحقوق الانسان ، مثل جمعيّة المسيحيّين لالغاء التعذيب . ومع ذلك حكم على الأب أرستيد كاميو بخمس عشرة سنة في السجن وعلى الأب فرمسوا جوريو بعشر سنوات . وتوقّف هذا الجزاء يوم ١٧ ديسمبر ١٩٨٣ مع الرجوع الى الديمقراطيّة .

فشل الاصلاح الزراعى

أثارت نهاية الطغيان العسكرى ورجوع حكم العلمانيّين أملا حقيقيًا : ألغيت القوانين التسلّطيّة ومنح حق الانتخاب للأميّين ،، وعددهم هائل فى البرازيل .

وكانت أولى مهمّة الحكومة الديمقراطيّة أن تزوّد البلد بدستور جديد ، وخاصّة إذا تحقق هذا الاصلاح الزراعى المشهور ، الذى مازالوا يعدون بتحقيقه ، ولكنّهم يرجئونه دائما . كان يتوقع المشروع المسبّق امكانيّة نزع ملكيّة ليس الأراضى غير المستغلّة فحسب ، ولكن أيضا كلّ الأراضى البور التى لا تمارس " وظيفة اجتماعيّة " أى التى لم تخضع للاصلاح الزراعى . ولكنّ رجال القوى المحافظة تحالفوا ضدّ هذا التنظيم . وقد تجمّع كبار الملاك فى وحدة ديمقراطيّة ريفية وضغطوا على وسائل الاعلام .

وفى يوم ١١ يولية سنة ١٩٨٧ ، أتى أربعون ألفا من مأجوريهم يتظاهرون أمام قصر المؤتمر فى البرازيليا . حازوا مؤازرة برلمانيّين ليدافعوا عن مصالحهم ، لأنّ كلّ نائب (من مجلس النوّاب) قد حصل على ثلاثين ألف توقيع ، كان يسمح له أن يقدّم بنجاح تعديلات فى المشروعات الدستوريّة . ونجح أحد هذه التعديلات فى أن يسحب من النصّ الخاصّ بالملكيّة شرط " الوظيفة الاجتماعيّة " . أخيرا ، نجد الدستور الجديد المعلن يوم ٥ أكتوبر سنة ١٩٨٨ - والذى يشمل اجراءات ديمقراطيّة فى ميادين أخرى - ثبّت ظلم الحالة الأرضيّة . فبدلا من امكان نزع ملكيّة مليونين وسبعمائة ألف مزرعة يسمح باستغلالها ، لم يترك الاّ خمسمائة ألف فقط ... ويعلّق هلدر كمارة على هذه الأنباء قائلا : الملكيّة هى أكبر عقيدة لدى شعبنا البرازيلى الكاثوليكى . هى أهمّ من الثالوث الأقدس ومن تجسّد الكلمة ، وأضحى أصعب لنا أن نحصل على تقسيم الأراضى بعدل من أن نلغى العبوديّة .

تجارة الرقيق

وفى الواقع ، دوّنت سنة ١٩٨٨ الذكرى المئويّة لالغاء العبوديّة . وذكر الأسقف كمارة هذا التاريخ المؤلم الذى بدأ فى عصر اكتشافات البلاد المجهولة .

كان ملوك البرتغال وأسبانيا المسيحيّون الغيورون يفكّرون فى توسيع امبراطوريّاتهم ، وكذلك فى نشر اليمان . فكان المرسلون يرافقون البحّارين . يا ليتنا لا نحكم على الماضى بنظريّتنا الحديثة إلى الأمور . لعلّى كنت فى أغلب الظنّ أحد هؤلاء المرسلين . فقد تصرف هؤلاء الأوربّيون والبيض المسيحيّون للأسف كما لو

يوجد البلد قبل حضورهم اليه . فبالنسبة لهم شرع البرازيل .. فى سنة ١٥٠٠ ، عندما اكتشفوه .أتوا وسحقوا ثقافات الأزتيك والمايا des Aztèques et des Mayas / . أمّا الهنود ، فكان لابدّ لهم من أن يقبلوا العبوديّة أو يهجروا وطنهم .

" بعد ما أزالوا الهنود ، ذهب المستعمرون إلى أفريقيا ليشتروا العبيد السود ويضعوهم فى خدمة اقتصادهم . وعند وصولهم هنا ، فصلوهم عن بعض : الأزواج عن زوجاتهم ، والأولاد عن أبويهم ، حتّى لا يكوّنوا جماعات . وأصبحت حقول القصب ومناجم الذهب أو الفضّة فى بلدنا " جحيم " هؤلاء الرجال والنساء ، المكويّين بعلامة بالحديد المحمّى ، والذين أصبحوا أشياء أسيادهم ... قد زالت العبوديّة الافريقيّة ، ولكن يوجد اليوم عبوديّة برازيليّة . "

هل أبالغ ؟ فى كتاب " فلاّحى البرازيل " ينقل أوليڤييه كولومبانى Olivier Colombani / هذه المعلومات : انّ جريدة " دولة ساوباولو " يوم ٢٥ أغسطس سنة ١٩٨٦ ، تحصى ٥٥ كوخا موزّعة فى كلّ البلد ، حيث ٩٧١٣ عاملا ريفيّا برازيليّا قد وصلوا إلى أقصى حدّ العبوديّة . لا مذلّة تنقصهم ولا السجون ولا الضرب ولا العقوبات الجسمانيّة ، ولا القتل للذين يحاولون الهرب فيجندلون كالأرانب . - إنّ التطويع وحده حديث العهد ، ولا يبحث بعد عن خشب الأبنوس على ضفاف خليج غينيا ، ولكن كان المستعمرون يغشّون الفلاّحين ويقدّمون لهم صور مدن كبيرة لأمزونيّين غير حقيقيّة لأنّها ليست الأ نماذج ، ويعدونهم بمكان فى الفردوس . هكذا حصل مقاول من ساوباولو على ثلاث مائة عبد لملكيّته العقاريّة فى روندونيا / Rondonia .

كان دائما لتحرير جماهير الفلاّحين وقع فى قلب الأسقف كمارة ، ولمّا لم يمكنه الاعتماد على السلطات العامّة ، اعتمد على تكوين الفلاّحين ليحملهم على أخذ مصيرهم على عاتقهم . لم تمض سنة على وصوله إلى ريسيف فى سنة ١٩٦٥ حتّى أسّس العمل الكاثوليكى الريفى ، بمساعدة كاهن فرنسى، هو الأب چوزيف سيرفا / Joseph Servat، الآتى من أبرشيّة باميه Pamiers . واشترك هلدر كمارة عمليًا فى تأسيس لجنة رعائيّات الأرض التى تحاول أن تضع فى خدمة الملاّك الصغار الذين لا سند ولا وثيقة لهم مساعدة فنيّين ومحامين وامكانات ماليّة ليدافعوا عن أرضهم .

عهد رئيس الأساقفة هلدر كمارة بمسئوليّة هذه الرعائيّات ، لنصف منطقة شمال شرق البرازيل ، إلى علمانى ، والد ثمانية أبناء يدعى پاولو كرسبو / Paulo Crespo . حاول پاولو أن ينشىء مبادرات بسيطة جداً ، اليكم مثل نموذجى منها هو مركز التكوين الريفى الذى أنشىء فى بسكويرة / Pesqueira ، على بعد ٢٣٠ كيلرمترا من غرب ريسيف . لاشكّ فى أنّ هلدر كمارة مفعم بروح التربية والتكوين !

عبر منطقة شمال شرق البرازيل

الساعة السابعة صباحا ، والشمس الطالعة تورّد الأفق . - يقول أحد أصدقاء هلدر كمارة " تركت ريسيف تحت قيادة پاولو كريسبو . وبعد قليل ، رأينا تلالا قد ارتسمت جانبيًا ، مغطّاة بالخضرة ، ببراعم القصب . "

قال لى پاولو : " قد كرّست الحكومة هذه الأراضى الحمراء الخصبة لتنمية إنتاج كحول القصب للسيّارات : انّه نجاح فنّى ولكنّه كارثة اجتماعيّة . كان لابدّ من هذا الانتاج نظرا لأزمة النفط ، وقد استولت مصانع كبيرة على الأرض بدلا من أن تقسّمها وتترك منها قطعا لزراعة الموادّ الغذائيّة . حقا ، إنّ قانونا يعترف للفلاّحين بحقّ زرع هكتارين لمعيشتهم ، ولكنّ القانون لا يطبّق . فيلجأ الفلاّحون إلى إقامة دعاوى ، ولكنّ كبار الملاّك لا يأخذون هذه القضايا بعين الاعتبار ، فهم أحيانا يستعينون بقتلة مأجورين ." وعندئذ ذكر پاولو اغتيال محام شجاع كان يدافع عن فلاّحى المنطقة ، يدعى ڤاندرو بيريره / Vendro Pereira ، له من العمر ٣٦ سنة. وقد قُتل - مثل پاولو فونتيل/ Paulo Fontelles ، المذكور سابقا - تحت نظر زوجته وأولاده ." وبينما يُترك القتلة أحرارا عادة ، فى هذه المرّة قُبض على القاتلين ، بفضل حاكم پرنامبوك ، ميخيل أرائيس / Miguel Araes ، المنتخب فى شهر مارس سنة ١٩٨٧. واعترف القاتلان أنّهما قتلا مقابل مبلغ يعادل أربعة آلاف فرنك . "

بعد مضىّ ساعة فى الطريق ، يتغيّر المنظر : تصبح المسيرة أكثر تموّجا ويقلّ وهج الشمس : انتقلنا الى منطقة متوسّطة بين الساحل المزروع بالسكّر والصحراء . وكانت الخضرة تسود هنا حينذاك ، ولكن بدون ثمار ، لأن المطر وصل متأخّرا ، وها هو الجفاف الأخضر . غير أنّ المنطقة تحوى نباتا نوعيًا يصمد فى حرارة الشمس ويعطى أربعين كيلوجراما من الطعام للحيوانات فى السنة ، ونوعا آخر للانسان تذوّقنا ، أثناء استراحة ، عيّنات منه ريّانة وعذبة . وابتعدنا قليلا لنعبر قرية تعيش على الصناعة اليدويّة : تجسّم فيها كلّ عائلة أشياء وأشخاصا وحيوانات ريفيّة بالصلصال : هو فنّ شعبىّ يأتى آلاف من السيّاح ينظرون إليه باعجاب .

دونما يكون هذا المكان محروما بصفة خاصّة ، إنّ هذه المنطقة المتوسّطة بين الساحل المزروع بالسكّر والصحراء جزء من شمال شرق البرازيل ، هذا الذى يسمّونه الجغرافيّون " مثلث العطش " أو " مربّع الجوع " .

يفسّر باولو كريسبو : " يقال إنّ هذا البؤس نتيجة الجفاف ، ولاشكّ فى أنّ الجفاف يزيد سوء الحالة . ولكن المسئول الأساسى هو السياسة . لأنّها تؤدّى إلى استعمار شمال شرق البرازيل على يد مركزه وجنوبه . ومشكلتنا الأولى هى الماء . والحال أنّ برازيليا وظّفت أكثر بكثير لرىّ الجنوب الذى كان أقلّ احتياجا ممّا فعلت لصالحنا . هنا ، الأرض حسنة والشمس تسطع اثنتى عشرة ساعة يوميًا . ويمكننا بالماء أن نحظى بثلاثة محاصيل فى السنة ، مركّزة على منتجات مكيّفة مثل نوع من الذرة والفاصولية ، اللذين يصمدان أمام الجفاف - عندما أدركت هذه الامكانات إن رعائيّات الأرض أرادت أن تحسّن الانتاج على أبسط مستوى . هكذا أسّسنا مركز التربية الريفيّة فى بسكويرة حيث يتكوّن فلاحون ، مندوبون من الجماعات الأساسيّة ، ويشاركون بمهاراتهم فيما بعد مع غيرهم .

الحياة على هكتارين

يظهر لنا معهد بسكويرة الاكليريكى القديم بالمظهر الآتى : بعض أشجار جوز الهند ، حيطان مغطّاة بقرميد أحمر وقبّة الجرس . البيت خال : قد انتهت فيه توّاً دورة استغرقت ستّة أشهر .

هنا ينسى المتدرّبون على الزراعة الحديثة الكيماويّة ليكتشفوا الزراعة العضويّة ، ونتائج هذا الاكتشاف تحت أعيننا : يفوض مربّع صغير بالجزر واللفت والبنجر وطيب الزاد / ciboulette والخضروات ... وفى الجملة يوجد ٣٢ نوعا مزروعا على قطعة أرض مساحتها ٦٠ مترا مربّعا . يصل الحصاد إلى كيلوجرام ونصف فى اليوم ، وتنظّم دورة الغلات بصفة أنّها تقدّم للأنظار خضرة طوال الشتاء ، وتوزيع الزرع على سطوح صغيرة تقيّد التآكل ، وغطاء من أوراق ذابلة على الأرض يكبح التبخّر .

وقد نظّم الانتاج الحيوانى تنظيما علميًا : يطعم الدجاج فضلات المطبخ ، وترمى فضلات الدجاج إلى الخنازير وبراز الخنازير يسيل فى بركة الأسماك حيث سمك النيل يتراءى بسعادته العاديّة فى نيله الأصلى .

يقول پاولو : إنّ حدود ملكيتنا هكتاران ونصف ، وقد يحصل فلاّح على إنتاج مماثل لانتاجها ، فيمكنه أن يعيش منه . - نجدّد هكذا روابطنا مع هنود البيرو والشيلى / du Pérou et du Chili ، وطريقتنا هى أيضا طريقة الصينيّين من ألف سنة الذين يعيشون على هكتار أو هكتارين .

وعلى غرار الأقدمين ، انّ متدرّبى بسكويرة يزرعون نباتات طبّية مختبرة ، بعضها للهضم وأخرى للسكّر . وأثناء كلّ دورة يقدّم المتدرّبون أنواعا جديدة من الزرع . " نحاول أن ننقذ علم الفلاّحين الذى تعرضّه للاضمحلال منتجات المؤسّسات الرأسماليّة الكيماويّة .

سند اللجنة الكاثوليكيّة ضدّ الجوع ولصالح التنمية

ذهبنا لنحيّى الذى سمح بوجود هذه المؤسّسة أى بتقديم معهده الاكليريكى لذلك ، وهو سيادة المطران ميخيل بلميره / Miguel Palmeira ، أسقف الأبرشيّة . فقال لنا سيادته : " لم أفعل أكثر من أنّى طبّقت تعاليم المجمع الفاتيكانى الثانى ." ـ يجب أن نشجّع ترقية الانسان ، أى أن نعلّم فلاّحنا البسيط أن يعيش فى شمال شرق البرازيل ، لأنّه اذا أعطيناه قطعة أرض لا يعرف أن يزرعها ، سوف يذهب إلى المدينة ، وهذا يزيد عدد سكّان الأكواخ . فلابدّ من اقناعه أن قطعة أرض جديرة بأن تعيّشه .

إنّ المركز يحظى بمساعدة اللجنة الكاثوليكيّة ضد الجوع ولصالح التنمية ، الذى يتّهمه البعض فى فرنسا أنّه يشجّع الشيوعيّة . يحتجّ المطران بقوله : " أكّدوا أنّ هذه المؤسّسة ، بعيدا عن أن تشجّع محاولة لقلب نظام الحكم ، هى أفضل وسيلة لتفادى هذا التدمير ، لأنّها فى خدمة الفقراء ، وأنّ الكنيسة تسندها وليس حزب سياسى . "

يظهر هذا التحقيق صغيرا جداً مثل نقطة ماء فى محيط البؤس . ولكن ، كما ينوّه كريسبو : " تشرع حكومة برنامبوك فى مشاريع مماثلة ، وقد طلبت منّا أن نمرن عمّالها الفنّيّين . انّهم مطلعون أكثر منّا ، ولكنّهم يجهلون لغة الفلاّحين البسيطة وعدّة خبراتهم بالأعمال وامكانات زرعهم الأحياتى . "

انّ پاولو كريسبو ، الذى له أجداد هنود واحتفظ ببعض مفاهيم هنديّة ، قال

لى فى شبه مجاهرة بمبادىء : " الأرض أمّنا ، ونحن خرجنا من أحشائها وسوف نرجع إليها . وهى كائن حىّ ، يحوى ملايين من أجسام صغيرة . هى هبة من الله ، ليس للمال ولكن للانسان . ليس لنستولى عليها ولكن لنقتسمها . "

هكذا ، بالرغم من القوى المعبأة ضدّه ، يتقدّم الاصلاح الزراعى فى الأذهان ، وقد بدأ زرعه على الأرض دونما يحدث صوتا ودونما يغضب أحدا .

الفصل التاسع

سلاح المسالمة

" رسول المسالمة " : إنّه لقب يمنح بطيب خاطر للأسقف هلدر كمارة .

يقولُ الأسقف : " لا أظنّ أنّه فى زمن ما بدأت أومن بالمسالمة ، بل كانت طريقتى فى تأويل الانجيل دائما . ولكنّى لا أحبّذ كلمة المسالمة ، أفضّل بكثير عليها عبارة روچيه شوتس : " عنف المسالمين " أو أىّ وصف يميّزها من السلبيّة . كيف يعرض شباب عن العنف المسلّح إن لم يقدّم لهم شىء قويّ وفعّال كموضوع اختيار ؟ المسالمة هى الايمان ، ليس خاصّة بقوّة الحقد والأسلحة ، بل بقوّة الحقيقة والمحبّة . وقد تحدّث القدّيس بولس عن هذه القوّة فى رسالته الأولى إلى أهل قورنتوس ١ : ٢٧ . إنّ أسلحة كفاحنا ليست دنيويّة ، ولكن يمكنها ، بقوّة الله ، أن تقلب القلاع . يوجد فى رسالة المسيح طاقات نوويّة راقدة . "

حسب فكر هلدر كمارة ، إنّ هذا الكفاح المسالم أصعب وأطول من الكفاح المسلّح ، ولكنّه أخيرا أكثر فاعليّة . فهو الذى سمح لكفاح غاندى وملايين من الفقراء فى الهند بأن يرتقوا إلى الاستقلال . وحصل به القس كنج على الغاء عدّة

العبوديّة . المسيح أكبر ثورى طوال الأزمنة ، ومع ذلك لم يسفك دما الأ دمه . ولو أتى إلى أمريكا اللاتينيّة لما أمسك بالرشّاش بل تسلّح بسلاح التطويبات .

ولكنّ الأسقف هلدر كمارة يرفض أن يرمى بحجر ويتّهم الذين ، بذمّة ، يضعون ثقتهم فى وسائل مسلّحة ليقاتلوا ضدّ الظلم والطغيان . " انّى أحترمهم خاصّة إن لم يحاربوا لعرض عضلاتهم بل خاطروا بحياتهم . ولكن ليس هذا ما أختاره ، لأنّى أفضّل ألف مرّة أن أقتل بدلا من أن أقتل . "

خطّ العنف اللولبى

يدعم هلدر كمارة عقائده العميقة بالتفكير ، وهذا ما يعرضه فى كتابه : " خطّ العنف اللولبى " . يميّز ثلاثة أنواع من العنف تسبّب بعضها بعضا : العنف رقم ١ هو الظلم المركّز ، كظلم الأنظمة الاقتصاديّة والاجتماعيّة التى تجور على شعوب كاملة مثل الحاصل فى أمريكا اللاتينيّة . عند عودته من رحلة فى هذه القارة حيث كان ضيف هلدر كمارة فى سنة ١٩٦٤ ، كان المطران أنسيل / Ancel ، رئيس البرادو ، يقول : " تخيّل لى أنّى أطالع نقد كارل ماركس على الرأسماليّة حينما رأيت استغلال الانسان الذى يواصل عمله بفقد وعى تامّ ، مثلما كانت الحال فى أحطّ أزمنة القرن التاسع عشر . "

ازاء حالات مثل هذه ، من السهل أن يرغب الانسان فى التخلّص منها بالسلاح ، مقابلا هذا العنف رقم ١ بالعنف رقم ٢ . وهى وسيلة وهميّة ، لأنّ

السلطات تريد حينذاك أن تعيد النظام العام إلى نصابه ، حتّى باللجوء الى الوسائل العنيفة . وهذا هو العنف رقم ٣ .

يقول هلدر كمارة : غالبا ، عندما كان شبّان يأتون اليّ ، مقتنعين بفاعليّة العنف ، كنت أضطرّ أن أقوم ببرهنة تامّة مستعينا بورقة وقلم : " يا أصدقائى ، لنفرض أنّكم تكوّنون جماعة وتتأهّبون لأخذ بنك عنوة ليمكنكم أن تشتروا أسلحة . أولاً ، عند وصولكم إلى البنك تخاطرون بأن تُقتلوا أو بأن تقتلوا موظّفا بسيطا يعمل فى البنك ليكسب حياته ولا علاقة له بنظامها . ولكن لنسلّم بأنّكم تنجحون فى عملكم . وبعد ؟ كم بندقيّة ومسدّس ورشّاش صغير وخرطوشة سوف يمكنكم شراءها بهذا المبلغ ؟ وماذا ستكون قيمة هذه الأسلحة ازاء عظمة وسائل السلطة القائمة العسكريّة وازاء وزارة الدفاع الأمريكيّة التى تسندها ؟

وكان الشبّان يذكرون حينذاك مثل كوبا ، وهذا صحّ . قد حرّر فيدل كاسترو بلده من طغيان باتستا . ولكن عندما اختار حرب الأدغال ، لم تكن الولايات المتّحدة مستعدّة لهذا النمط من القتال ، نمط حرب العصابات . ولكن ، منذ ذلك الزمن ، ساعدت الولايات الأمريكيّة جيوش أمريكا اللاتينيّة على تكوين وحدات متخصّصة فى الصراع ضدّ حرب العصابات . أضيف أنّى لم أحلم قطّ بالحلّ الكوبى ، لأنّه ليس تغيير مدار محرّرا حقيقيّا ، أعنى أن يصبح المرء تابعا للوحدة السوفييتيّة بعدما كان تابعا للولايات المتّحدة . "

كان الشبّان يذكرون للأسقف هلدر خبر محاربيّن فى حرب العصابات حصلا على هالة البطولة : شيه چيڤارا وكاملّلو توريس/ Guevara et Camilo Torres .

في الواقع ، زنّهما ضحّيابالحياة لتحرير شعبهما . ولكنّ الأسلحة التى اختاراها لم تكن مطابقة للهدف الذى يسعيان اليه . أحدهما ، طبيب أرجنتينى سابقا ، وأصبح ثوريًا متجولا ، كان يهيم من دغل إلى دغل ليغذّى النار وهو يردّد : لابدّ من أن يكون الحقد محرك الصراع ، الحقد غير المتساهل الذى يدفع الكائن البشرى الى أبعد من حدوده الطبيعيّة ويحوله الى آلة للقتل . " والثانى ، الأب كاملّلو توريس ، كان يشعر شعورا حاداً بظلم النظام القائم فى كولومبيا (واحد فى المائة من الملاك مستول على ثمانين فى المائة من الأراضى . كان مقتنعا أنّ حكم قلّة أنفار - وكان هو من أبناء هذه القلّة - لن يطلق أبدا امتيازاته الا تحت تهديد الرشاشات .

يقول هلدر كمارة : " كنت قابلته فى أغسطس سنة ١٩٦٣ فى بوغوتا . كان حينذاك مدرّسا فى جامعة سان مارك ، معبودا من طلأبه ومحبوبا من الشعب فى كلّ البلد .

بعد فوات الأوان ، فكّرت فى أنّه بالنفوذ الذى كان يحظى به هذا الكاهن ، لو كان قد عرف الصراع المسالم وجعل نفسه البطل المدافع عنه ، لأمكنه أن يحرك قوّة ثوريّة مسالمة . ولكن عندما كلّمه أحد أصدقائه عن العمل المسالم كان الأوان قد فات . وكان رئيس الأساقفة هلدر كمارة قد قطع كلّ علاقة معه . وكان يبكى بكاء مرّاً ، لأنّ المسئولين حرموه من الافخارستيّا ، وأصبح مضطر الى أن يغيّر كل ليلة مقرّه (إذ إنّ يد حكم القلّة السوداء كانت تهدّده) وانتهى الأمر يوما " بالسيّد توريس " كما كان بعض أساقفة قد تصنّعوا فى تسميته ، إلى أن يلتحق بالدغل فى الجبل .

كان شيه چيفارا وكاملُلو توريس يأملان أنّ الفلاّحين يتبعونها . ويقول الأسقف كمارة : كان خطأهما أنّهما نسيا أنّ كتلة من الناس لا تكوّن شعباً بعد ، لأنّه ، حتّى أنّ كتلة تصبح شعبا ، لابدّ أولا من عمل توعية طويل وصبور . كان أغلب شعب أمريكا اللاتينيّة يعيشون فى حالات أحطّ من الانسانيّة ، وبما أنّه كانت تنقصهم أسباب تربطهم بالحياة لم تكن لهم أسباب تدفعهم إلى الموت . - فى كولومبيا استمرّ العنف . ولا تزال حرب العصابات تقاوم السلطات المحليّة ، ولكن دونما تصل قطّ الى أهدافها الثوريّة .

مثال يقتدى به ، هو مارتن لوثر كنج

لا يكفى أن نقول " لا " للثورة المسلّحة ، لابدّ من اصلاحات عميقة ، ولكن بطرق أخرى . كان هلدر كمارة يحلم بحركة واسعة تمارس سلطة أدبيّة محرّرة ، على الآراء العامّة ، على الحكومات . فى نهاية المجمع الڤاتيكانى الثانى ، فى روما ، يوم أوّل ديسمبر سنة ١٩٦٥ ، خلال مؤتمر صحفى ، كان الأسقف كمارة يعرض ما يتمنّى أن تكون ، حسب رأيه ، نتيجة المجمع : " أن نتسا مل ، حسب توجيهات المجمع عن الحرب والسلام ، إذا لم يكن مناسبا أن نقيم عملا مسالما فى البلاد النامية ، خاصّة فى أمريكا اللاتينيّة .

درس المشروع دراسة وافية . وفى يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٩٦٦ ، فى سلفادور باهيا ، دعى هلدر كمارة إلى لجنة الأمم المتّحدة لأمريكا اللاتينيّة وأعلن : " يحسن فورا أن تقام حملة عالميةّ لالغاء العبوديّة الحاليّة ، حتى يتمّ

استقلال الشعب السياسى باستقلال اقتصادى سهل المنال ، ليس فقط لبعض طبقات متمتّعة بامتيازات ، بل لجميع البشر ." وفى جامعة برينستن Princeton ، يوم ١٠ فبراير ١٩٦٧ ، كان يقول : " المسألة الهامّة هى أن نعرف اذا كانت الثورة الاجتماعيّة التى يحتاج اليها العالم سوف تكون عملا تربريًا أو سوف تضطر أن تمرّ بالعنف . "

والمثال الذى يقتدى به الأسقف كمارة هو مارتن لوثر كنج . فيقول : " أرجو أن أقابله وسوف أقول له : " يا صاح ، لك شهرة عالميّة ، وقد أتت الساعة لتوسيع عملك . فبينما تتابع دفاعك عن حقوق السود ، أدخل فى الصراع لصالح التنمية . "

داخل هذا العمل ، يلح هلدر كمارة فى أهميّة الجذور الروحيّة ، على غرار القس الأسود الذى يطلب من مناضليه أن يعتنقوا دستورا مكونًا من عشر وصايا ، هى : أن أتأمّل كلّ يوم فى كلام يسوع وحياته .. أن أتذكّر أنّ الحركة المسالمة تهدف ليس إلى العنف بل إلى المصالحة والعدالة .. أن أحافظ فى تصرّفى على موقف محبّة ، لأنّ الله محبّة .. أن أتجنّب كلّ عنف بقبضة اليد ، باللسان أو بالقلب ... وشرح الأسقف كمارة قائلا : " علينا ألاّ ننسى أنّ بداية البدايات هى التحرّر الباطنى : كيف يمكن من هو عبد لذاته أن يحرّر الآخرين ؟ "

وقد اغتيل كنج يوم ٤ مايو سنة ١٩٦٨ ويدرك هلدر كمارة اليوم ، أكثر من أىّ وقت مضى ، أنّه محمول على الأخذ ثانية بمشعل المسالمة الفعّالة ، ويقول أمام جمهور من السود : " لا تظنّوا أنّ زعيمكم الكبير ، شرف قومكم ، قد فشل لأنّه

قتل . كان المسيح يوم الجمعة الحزينة ، فى الظاهر ، مثل أفظع فشل . إلاّ أنّه ، بعد أقلّ من ثلاثة أيّام ، قد قام من بين الأموات ... ومارتن لوثر كنج ، أبعد من القبر ، هو الآن رمز . كان زعيما وأصبح بطلا ، شهيدا ، علَما . كان يخصّكم ، والآن هو يخصّ الانسانيّة جمعاء . "

عمل العدالة والسلام

ويكرّر هلدر كمارة : " شرط العمل المسبّق هو " التوعية " : اقامة تغيير العقليّات ، نوع من الثورة الثقافيّة ، خاصة عند الأساقفة . فى شهر يوليو سنة ١٩٦٨ ، فى اجتماع هيئة الأساقفة الدولى ، حثّ على تبنّى اسم لمشروعه و سمّاه : " سلطة أدبيّة محرّرة " . إلى جانب ذلك ، عرض نصّ تعهّد وقّعه ٤٣ أسقفا من ٢٥٣ : " بما أنّ محبّة الله والقريب تدفعنا ، ونريد أن نتعاون لتحرير ملايين من أبناء الله الذين فى بلدنا وعلى قارتنا ، يعيشون على هامش الحياة الاقتصاديّة والثقافيّة والفنيّة والسياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة ، ونشعر بأنّه ليس الا عمل جرىء ومنسّق سوف يعطى كثافة عمليّة لوثائق مثل " الكنيسة فى العالم المعاصر " و "فى تقدّم الشعوب وارتقائها " ، فنتعهّد أن نشجّع إلى أقصى حدّ السلطة الأدبيّة المحرّرة ... "

سوف يكون ريسيف مقرّ الحركة التى تغيّر اسمها بعد قليل وأصبح : "عمل العدالة والسلام " ، لأنّ السلطة الأدبيّة تشبه كثيرا اعادة التسليح الأدبى . ووقع اختيار تاريخ الترويج للمشروع على يوم ٢ أكتوبر سنة ١٩٦٨ ، اليوم الذى يشير

معا إلي ذكرى ولادة غاندى وبداية السنة الغانديّة التى نظّمت لذكراه السنويّة .

ومساء يم ٢ أكتوبر ، تدفّق آلاف من المؤيّدين فى فناء مدرسة ساو خوسيه فى ريسيف ، وعلت هذا الجمهور لافتات معبّرة تقول : نرفض العنف القائم ، نريد ثورة مسالمة ... نطالب بالاصلاح الزراعى ... نقاوم الردع البوليسى ... و " على شرفة ، تناوبت فرقة مسرحيّة ومغنّون شعبيّون وأجواق متكلّمة .. للتنديد بالظلم والطغيان والبؤس . " فمن مائة عائلة برازيليّة ، لا يحصل سبعون حتّى على الأجر الأدنى .. وبين الذين يحصلون عليه كثير لا يصلهم الأجر إلاّ على قطعة من الورق ... كثير من المسئولين يهتمّون أولا بالمحافظة على النظام ولا يرون أنّهم فى الواقع يحافظون على الفوضى . ملكيّة خاصة ، نعم ، ولكن ليس ملكيّة تؤول إلى الحرمان ... " واستعرضت هكذا كلّ أفكار الأسقف كمارة .

ثمّ أخذ الأسقف بدوره المذياع : ملأ الفضاء صوته الحار ، الحماسيّ . ولمّا كان يفكّر فى الذين يظنّون أن تغيير الأنظمة بدون عنف مسلّح محال ، أطلق هذه الدعوة : " تذكّروا ما حصل منذ جيل ، يوم ١٣ مايو سنة ١٨٨٨ ! : كان كلّ شيء فى يد أصحاب العبيد : السلطة والمال والصحافة . ومع ذلك ، وجُد شبّان يملأهم مثل أعلى ، قد ألهبوا العقول والقلوب بدون عنف ولا قتل ، وسبّبوا الفوز للحق والعدل . فلنكمّل هذا اليوم ، يوم ١٣ مايو ، الذى حظى برؤية الغاء العبوديّة الافريقيّة ، ونحرّر عبيدنا القوميّين الحاليّين ! "

ويلحّ هلدر كمارة قائلا : " لا تكفى الاصلاحات السطحيّة . إنّ كثيرا من حكومات أمريكا اللاتينيّة ، أحيانا بدون علم وبدون ارادة ، تحضّر أفظع القنابل ،

أفظع من القنبلة " ألف " ، القنبلة " ب " ، قنبلة البؤس .

يحضّر القنبلة " ب " الذين يخشون ادراك الجماهير أو الذين يحاولون أن يمنعوا هذا الادراك تحت اتّهام الجماهير بقلب نظام الحكم وبالشيوعيّة .

ويحضّر القنبلة " ب " الذين يحاولون أن يقمعوا بالقوة احتجاج الشبّان والعمّال ، وحتّى احتجاج الكنيسة ، بقدر ما هى مضطرّة أن تعبر صوتها لمن لا يمكنهم الكلام .

ليست الحركة التى ظهرت اليوم لأوّل مرّة حركة مكيّفة وسلسة ، لأنّ الله يتقيأ الفاترين . تريد هذه الحركة ، بنعمة الله ، عنف المسالمين .

هل سنكون عاجزين أمام الحيطان القديمة التى لابدّ من أن تهدم ؟ تذكّروا الصراع بين داود وجليات . من كان يتردّد أن يشارط أنّ هذا الراعى الصغير سوف يسحق بيد الجبّار ؟ ومع ذلك ، هزم داود جليات بمقلاع وخمس حصىً . أمّا خمس حصيّنا نحن فهى الايمان بالله والثقة فى الحقّ والثقة فى العدل والثقة فى الخير والثقة فى المحبّة . "

كان يتراءى أنّ فصلا جديدا يفتح فى تاريخ المسالمة ، ولكنّه سوف يغلق سريعا . لأنّ بعد شهرين ، يوم ١٣ ديسمبر سنة ١٩٦٨ ، نشرت الحكومة العسكريّة العمل المؤسّسى رقم ٥ : وكان عمل تصلّب الطغيان . فأكثر من كلّ وقت مضى كان من يتكلّم عن عدل وحرّية يشتبه فيه ، فيعتقل ويعذّب أو ينفى . وها قد

كبحت فى الحقيقة حركة المسالمة : كان ينقص هذه الحركة صلابة وأهداف واقعيّة وعقيدة مهيّئة وشبكة لتكوين مناضلين .

سوف يستمرّ هلدر كمارة فى بذر حبوب مسالمة فى أرض مسقط رأسه وعبر العالم . فى سنة ١٩٧٠ ، حظى فى ريسيف بزيارة القس رالف ابرنتى / Ralph Abernaty ، خلف القس كنج ، الذى دعاه إلى الولايات المتحدة للحصول على جائزة مارتن لوثر كنج . يمنح هذا الامتياز كلّ سنة لشخصيّة بطرق مسالمة فى قضيّة العدل والسلام . وحصل رئيس الأساقفة على هذه الجائزة فى أتلانتا / Atlanta ، المدينة التى ولد فيها القس كنج ودفن . تأمّل طويلا على القبر الذى حفرت عليه فى المرمر كلمات أب العبيد السود الروحى ، والتى كان هذا الزعيم قد ذكرها مرارا :

أخيرا حرّ !
لنشكر الله القدير !
أخيرا أنا حرّ .

أثناء خطبته فى أتلانتا ، نوّه الأسقف كمارة بأن ينظّم تقابل عالمى لزعماء الحركات المسالمة ، وفى الواقع ، سوف تنظّم ثلاثة اجتماعات ، يشترك فيها ، فى أسترهوت / Asterhout فى هولاندا ، فى لندندرى / Londonderry فى ارلاندا الشماليّة وفى ناسّونيو / Nassogne فى بلچيكا . - فى لندندرى ، سعد بمقابلة العميد دى بولّرديير / de Bollardière الذى أفضى اليه : " اكتشفت المسالمة شيئا فشيئا ، للأسف خلال خبرة الحرب ، وأمضيت وقتا طويلا لأدرك كيف يمكن للمسالمين أن يبرهنوا على فاعليّتهم فى نزاعات العالم . "

توجّه أيضا الأسقف هلدر إلى أل بورى - نوبل / Borie-Noble ، جماعة " الأرش الأمّ " التابعة للانزة دى فاستو / Lanza del Vasto . كان قد قابل قبل ذلك رفاق " الأرش " أثناء المجمع الفاتيكانى ، وقد رتّب أولئك معرضا عن المسالمة ، وكان بعضهم قد صاموا ليلفتوا نظر الأساقفة إلى هذا النمط من العمل الذى سوف يقول عنه فى النهاية المجمع الفاتيكانى الثانى ، : " لا يمكننا إلاّ أن نمدح الذين يعرضون عن العنف لحماية الحقوق ويلجأون إلى أسباب دفاع هى ، فضلا عن ذلك ، فى متناول أضعف الأشخاص . "

قوّة الضعفاء

سئل هلدر كمارة عن فاعليّة العمل المسالم ، وها هو ما قاله فى كتابه : " أسئلة للحياة " . تسرد دائما كتب التاريخ قصص الحروب والثورات العنيفة ، وكان يجدر بها أن تسرد تاريخ الشعوب التى عرفت كيف تقاوم طغيانا بدون عنف. هكذا حصل الشعب المجرى فى القرن السابق على نظام استقلال فى الامبرطوريّة المجريّة عقب حملة تمرّد فعّال ورفض الضريبة . وفى أوائل الجيل الحالى صمد الشعب الفنلندى فى وجه الروس بتمرّده المنظّم على أوامر قيصر روسيا . فى سنة ١٩٢٠ ، أحبط الألمان انقلاب عسكرى باضراب عامّ ورفض تامّ لطاعة أوامر سلطة غير شرعيّة .

أثناء الحرب العالميّة الثانية ، منع الدانمركيّون بتصرّفهم الجماعى سلب اليهود الذى كانت شرطة هتلر قد وضعت منهجه ، وفى كاليفورنيا ، قاد قيصر شافيز

César Chavez صراعا مسالما طويلا قام به عمّال زراعيّون لصالح الاعتراف بحقوقهم النقابيّة . وعندكم أنتم أيّها الفرنسيّون ، قام عمل فلأحي اللارزك ، وفي الولايات المتّحدة عمل مارتن لوثر كنج وفي الهند عمل غاندى .واليوم ، يدير العالم أنظاره نحو بولاندا . " وكان الأسقف كمارة يكتب قبل انقلاب طغيان مرقس الذي سبّبه عصيان كورى أكوينو / Cory Aquino الانجيلي والشعب الفيليبّيني .

يحصى الأسقف هلدر قواعد للعمل المسالم والمبدأ الأول ، بدون شكّ ، هو الرفض التامّ لكلّ عنف ضدّ الحياة وكرامة الأشخاص . ولكن توجد خاصّة استراتيجيّة العمل المسالم . ويقول الأسقف : " هذه الطريقة تتكيّف بالطبع وفق نوعيّة النزاع المطلوب فضّه ووفق القوى المتواجهة . بصفة عامّة ، ازاء سلطة ظالمة ، تحاول الطريقة أن تزعزع أسس النزاع وهي الخضوع للظلم والتعاون مع العدوّ وطاعة الشعب . تسعى الطريقة لتنظيم عدم التعاون وتمرّد الأغلبيّة : ما من سلطة يمكنها أن تظلّ على حالها طويلا ، ولو بالسلاح ، ضدّ سكّان يرفضون الطاعة في جملتهم ، ويعترفون بسلطة أخرى . والاستراتيجيّة هي أيضا الحوار الذي لا يكلّ مع عملاء السلطة الظالمة والمقتنعين أو المسلّمين أمرهم بين بين ، لمحاولة ضمّهم إلى الصراع من أجل العدالة .

ما الأفضل ؟ هل الاختيار الأدبي أولا أو الاختيار الاستراتيجي ؟ يختار كثيرون المسالمة لأسباب أدبيّة أو دينيّة : يحاولون أن يحلّوا السؤال الدائم : كيف نعمل للعدالة والحريّة والسلام بدون استعمال وسائل ، فقد تظهر فعّالة على الفور ، ولكنّها تحمل في طيّها بذور موت للعدالة والحريّة والسلام ؟ يودّ المسيحيّون بصفة خاصّة أن يظلّوا أمناء للعظة على الجبل ويسيروا على مثال المسيح .

" ولكنّ عديدا من الأشخاص يختارون استراتيجيّة المسالمة لسبب فاعليّتها فحسب . ففى حملاته لتحرير الهند ، اعترف غاندى بأنّه لو انتظر أن يقتنع الجميع أدبيًا بضرورة المسالمة لما تقدّم كثيرا فى مشروعه . تحاول المسالمة أن تجعل الخصم يتنازل عن رأيه وهو لا يزال عنيفا . ولا يعنى ذلك أنّنا ننتظر ، لنعمل ، اقتناعه بالمسالمة . ولذلك إنّنا نعتبر أنّ المسالمة هى لليوم وليس لغد . فلا يجوز أن نعارض بين الأسباب الأدبيّة والأسباب الفعّالة . لأنّ المسالمة التى لا تهتمّ بأن تكون حقيقة عملا جديرا بأن يؤثّر بطريقة فعّالة فى التاريخ ، قد تكون جمودا مقنّعا وراء مبادىء عظيمة ومشاعر حسنة . "

تأثّر الأسقف كمارة باضراب كان سببه مزدوجا : سبب الجيلى وسبب منهجى : اضراب عمّال مصنع أسمنت بلدة بيروس / Perus ، القريبة من ساو باولو ، وكان يستغلّ هذا المصنع ربّ عمل مقدام ، صاحب ٣٥ مشروعا أخرى .

بعد ستّ سنوات كفاح متواصل ، نجح عمّال المصنع أن يحصلوا على حقوقهم . وماذا كانت وسائلهم ؟ ليس الاّ طرق سليمة ، بما فيها الصوم ودرب صليب قاموا به عبر مدينة ساو باولو ، وعلى رأسهم عامل حامل الصليب . ولو كانوا قد خضعوا للعنف ، خاصّة فى نظام عسكرى ، لكانت الغلبة للقمع والردع.

تطواف غريب

بطريقة بسيطة جدًا ، كان الأسقف هلدر أهمّ من يمكنه القيام بعمل من هذا

النمط الناجح : حضر يوما ما بعض صيّادين ليقابلوه ، وقالوا له : " نحن فى حالة رهيبة : يموت السمك الذى نصطاده ويطفو على سطح الماء . ماذا يؤول بنا نحن وأولادنا ؟ استفسر الأسقف وعرف أن مصنع مطّات جديد يفرّغ فضلاته فى الماء ، ويلوّث جوانب الشاطىء . فتذكّر آنذاك كلمة قالها جان جوسّ ، أمين عام حركة المصالحة العالميّة ، الذى حدّثه مرارا عن المسالمة : " ازاء ظلم ، لابدّ من العمل . " فذهب هلدر كمارة ليلاقى الصيّادين وأوحى اليهم بأن يذهبوا لمقابلة رؤساء المصنع . ولكن لم يجرؤ على ذلك هؤلاء القوم البسطاء . " اذن ، فلنذهب معا " قال الأسقف .

فى هذا الحكم العسكرى الاستبدادى ، لابدّ اذن من القيام بخطوة مثل هذه . قال قائد المنطقة للأسقف : " ليس فى مقدورى أن أسمح لك بذلك ، وإلاّ سوف يظهر جميع الثوريّين ويحدث قتال . " - اذن ، يا سيّد ، أجاب الأسقف ، لن نقوم بمظاهرة ، بل بتطواف بسيط ، وأنت تعلم أنّه ليس لكم حقّ التدخّل فى المسائل الدينيّة . "

فى اليوم المتّفق عليه ، شرع التطواف الغريب فى مسيرته ، مكوّنا من رجال ونساء وأطفال ببطون عالية من سوء التغذية ، عرايا أو يرتدون أطمارا . وعلى رأسهم أسقفهم ، أى الكنيسة متماثلة مع بؤس الشعب . لا لافتة معهم ، فقط صليب من خشب مع شبكة الصيد .

وصلوا الى المصنع وكان فى استقبالهم رجال الشرطة ببنادقهم ورشّاشاتهم الصغيرة . ولم يوجد أحد من رجال الادارة . خيبة أمل مرّة ! وعليه ، كان

الأسقف كمارة يفكّر فيما كان قد قام به القس كنج محلّه . لمح سيّارة ، فصعد على ظهرها ووجّه خطابه الى الجمهور قائلا : " انكم ترون أنّ أولئك أرباب العمل بشر مثلنا ، بنقائصهم . وأنتم تذكّروا باخلاص : يحصل لكم أنّ بعدما تهيعون سمككم ، تذهبون الى بائع خمر لتشربوا منكرا بدلا ما تعيدون بمالكم الى بيوتكم . وفى هذه اللحظة ، يقرع يسوع ضميركم وقلبكم ، ولكنّكم لا تصغون اليه فورا ودائما ، فيضطرّ أن يقرع مرّات عديدة . وكذلك أولئك أرباب العمل ، ان قرعنا بابهم مرّة واحدة - وبواسطتنا يقرع المسيح - لا يفهمون . ولكن سنرجع غدا ونقرع من جديد . "

ورجع الناس إلى منازلهم مصمّمين على الرجوع . ولكنّهم لم يضطرّوا إلى ذلك . فى الغد ، روت الصحافة كلّها التطواف . فشرع حينذاك أرباب العمل يدركون أنّ قوة بدأت تتحرك وتقاضى ضميرهم . وبعد ظهر هذا اليوم ، قابل هلدر كمارة صاحب الشركة بحضرة مدير الشرطة :

" أنا مطرانكم . تعلمون ما سبّبته منتجات مصنعكم الكيماويّة : الناس معرضّون للموت من الجوع بسببكم . " فدافع رئيس المصنع عن الموقف قائلا : " لا يمكننا أن نعمل خلاف ذلك . قد نضطرّ أن نشغّل أربع مائة عامل جديد ونعيد النظر الى بنية المصنع الاداريّة بأكملها . "

فأجاب الأسقف كمارة : " أيّها المدير ، كم من عامل لديكم فى ريسيف ؟ "

- " أربع مائة ألف "

" هذا أكثر من اللازم لطمر المنتجات الكيماويّة ريثما تغيّر بنية المصنع . أليس فى مقدور المدينة حاليًا أن تقترح على مساعدة ماليّة لدفع أجور العمّال الجدد ؟"

وهذا ما حدث : طمرت المنتجات الكيماويّة ، ورجع السمك إلى مجراه ، وبالتالى استعاد الصيّادون تغذيتهم .

مصنع البارود

تستبعد المسالمة الحرب وتحضيرها . فى هذا الصدد ، يندّد الأسقف كمارة بعثار ثلاثى :

أولا سباق التسلّح المكثّف : وهو الجنون الأوّل : فى سنة ١٩٨٦ ، أنفقت الدول ألف مليار من الدولارات على ميزانيتها الحربيّة ، أى مائتى دولار عن كلّ ساكن فى الكوكب ، بقدر ايراد سنوى يحصل عليه مواطن بوركينا - فازو / Burkina-Faso . (على سبيل المثال ، تبلغ الميزانيّة الحربيّة فى فرنسا لسنة ١٩٨٩ مائة واثنين وثمانين مليارا ونصف من الفرنكات أى ثلاثة آلاف وثلاث مائة وعشرة فرنكات عن كلّ ساكن) . ويذكر هلدر كمارة كلمة البابا بولس السادس فى رسالته :" فى تقدّم الشعوب وارتقائها " : " عندما يعانى من الجوع عدد عظيم من الشعوب ، وعندما يعانى من البؤس عدد عظيم من الأسر ، وعندما لا يزال عدد عظيم من البشر منغمسين فى الجهل ، وعندما يظلّ عدد عظيم من المدارس

والمستشفيات والمنازل اللائقة محتاجة الى البناء ... يصبح كلّ سباق مضنٍ للتسلح عثارا لا يطاق . " ويذكر أيضا الأسقف كمارة كلمة العميد أيزنهاور ، رئيس الولايات المتّحدة : " يكوّن كلّ مدفع يخرج من المصنع سرقة على حساب الجائعين ." (من خطاب ألقاه في نيويورك يوم ١٥ أبريل سنة ١٩٥٣ ، وأضاف الرئيس : لا ينفق هذا العالم المسلّح مالا فحسب ، بل ينفق عرق عمّاله وعبقريّة علمائه ، وآمال أولاده . يطابق ثمن قاصفة واحدة ثقيلة ثمن ثلاثين مدرسة عصريّة أو مستشفيين مجهّزين تجهيزا كاملا . ") .

الجنون الثاني ، هو مصنع الأسلحة النوويّة ، وهو يوازى مليون قنبلة مثل قنبلة هيروشيما ، أى المزمع أن يدمّر كلّ الحياة التى وضعها الخالق على الأرض . " يقول لنا إخواننا ساكنو الشمال ، مناصرون السلاح النووى : " أنظر كيف ، منذ أربعين سنة ، وقانا التهديد النووى من الحرب ، فلم تقع بعد الحرب العالميّة الثالثة . فى الواقع ، لم يزل رجال الدول العظيمة محتمين بصواريخهم ، يحاربون باستخدام الشعوب الفقيرة ، وأحصت هذه النزاعات عددا من القتلى يضاهى عدد من ماتوا فى الحرب العالميّة الثالثة . "

والجنون الثالث هو تجارة الأسلحة . " يقول هلدر كمارة : بصفتى عضوا غير فنّىّ فى معهد ستوكهلم العالمى للبحث عن السلام ، انّى أحصل على معلومات عديدة . انّ صناعة الأسلحة تمارس بمنطق رهيب : لا يمكن دولة أن تصنع أسلحة لذاتها الاّ اذا نوت أن تصنعها بالجملة والاّ اذا فكّرت أن تبيع أسلحة لغيرها . ولمن يمكنها أن تبيع ؟ ليس بالطبع للدولتين الكبيرتين ! إذن ستتّجه نحو البلاد الفقيرة التى ينقصها الضرورى لشعوبها ، وهكذا تجذب هذه البلاد إلى سباق التسلّح .

وبما أنّه يبطل استعمال الأسلحة العصريّة بسرعة عظيمة ، يرجع البائعون ويوحون إلى البلاد الفقيرة بمهارة عظيمة بأنّ الأمن الدولى يقتضى ... وأنّ جاركم اشترى توًا أسلحة من أحدث طراز ... " وهذا النمط من التجارة هو شرك شيطانى . يشرع التاجرفى صنع أسلحة ليدافع عن نفسه ، ثمّ يبيع أسلحة ليمكنه أن يستمرّ فى صناعتها ، ويحاول أن يحثّ على حروب ليتمكّن من متابعة بيع الأسلحة . "

صوم أورليان / Orléans

يعرف الأسقف هلدر المكان الذى تحتلّه فرنسا فى هذا النوع من التجارة . فى نهاية محاضرة ألقاها فى أورليان يوم ٢٣ مايو سنة ١٩٧٠ ، أمام ثلاثة آلاف مستمع ، سأله أحدهم : " قررت الحكومة الفرنسيّة فى الساعة أن تبيع ستّ عشرة طائرة ميراج للبرازيل . ماذا رأيك فى هذا ؟ " وجاء الجواب مباشرا بدون أى التواء : " انّ ذلك فضيحة للبرازيل ولفرنسا " .

فضلا عن أن جفافا رهيبا كان يجتاح فى ذلك الحين منطقة شمال شرق البرازيل ، كان كثير من المناضلين فى جماعة أورليان المسالمة يتساءلون عن طريقة احتجاجهم على هذه الفضيحة . فقرّر أهمّ باعث نشاط فى هذه الجماعة ، وهو المدرّس چان مارى مولر / Jean-Marie Muller ، وكاهن يدعى چان ديبواه / Jean Desbois ، أن يتعهّدا بصيام لمدّة خمسة عشر يوما علامة على احتجاجهم . وكتبوا إلى رئيس الجمهوريّة چورج بومبيدو / Pompidou :" لا يمكننا أن نأكل من هذا الخبز الذى أبدلناه بأسلحة . " وفى دير بيت عانية / Béthanie ، بقرب من أورليان ، امتنع المتطوّعان عن كل غذاء من ١٩ يونيو الى ٣ يوليـة .

- وجلب عملهما - الذى عكسته الصحافة - حركة تضامن ، أى سلسلة أصوام عامّة أو خاصّة : فى باريس وليون وتولوز ومونبلييه وبربنيان Perpignan , Montpellier, Toulouse, Lyon, Paris à ... وكان الصائمون يتحاورون مع زوّارهم وينشرون نصوصا . - فى كليرمون التابعة للواز ، / A Clermont-de-l'Oise أرسلوا المبلغ المعادل للوجبات التى ضحّوا بها الى هلدر كمارة . وفى روانّ / A Roanne ، امتنع مائة وخمسة طلاّب عن الأكل فى يوم حصل فيه انفجار نووى فى موروروا / à Mururoa . وكتب عديد من المواطنين الى رئيس الدولة ليعلموه بأنّهم متضامنون مع مولر وديبواه اللذين تسلّما ضعف أكثر من ألف جواب .

أتى مطران أورليان ، الأسقف ريوبيه / Riobé مرّات عديدة ليزور صديقيه خلال صومهما . وكان يساندهما خاصّة برسالة عامّة قائلا : " تلقّينا شهادة الأسقف كمارة كدعوة مباشرة لضميرنا . ومنذئذ ، لا يمكننا حقّا أن نعتبر أنفسنا متضامنين مع العمل للعدالة والسلام ، الذى باشره هلدر كمارة بشجاعة فى بلده ، الاّ بقدر ما نقوم بنفس الصراع لدينا . ونرى فى هذا الضرورة لمسئوليتنا بأن نلتزم مباشرة . " فكيف نقبل أن نغتنى من بيع طائرات الميراج لبلد فيه جماهير من الناس محرومون من خبز وحريّة . "

انّ رسالة الأب ريوبيه قد جلبت له مراسلات عديدة تسود فيها الشتيمة . ولكنّ أساقفة آخرين فى تولوز ورينس وأراس وبلوا ونانت Nantes, Blois, Arras , Reims, Toulouse à... ضمّوا احتجاجهم إلى اعتراضه . وكان ذلك كلّه سلسلة نتائج لكلمة الأسقف البرازيلى الانفجاريّة . "

ولكنّ هذا الأخير يرفض أن يقرع ندمه على صدر الآخرين . فكان يقول فيما بعد : " يدرج بلدى نفسه فى لائحة شرف بيع الأسلحة . ولكنّنا نحن ، معشرالبرازيليّين ، لا نقبل شرف تصنيع الموت . واذا جهل بلدى الحرب ، فقد انتفع منها . كانت البلاد المحاربة محتاجة الى موادّ أوليّة . وبالنسبة الى البرازيل الذى لا تنقصه المواد الأوليّة ، كانت هذه ضربة حظّ . "

جائزة السلام الشعبيّة

ألا يستحق الأسقف هلدر كمارة جائزة نوبل للسلام ؟ فكّر فى ذلك كثيرون فى العالم ، وعرض الأمر مرارا شخصيات عديدة أو جمعيّات لهيئة تحكيم أوسلو ، ولكن بدون جدوى . وعليه قرّرت كنائس النرويج والسويد ، معتمدة على النقابات وجماعات الشباب ، أن تمنحه جائزة نوبل موازية ، جائزة شعبيّة للسلام ، وبالفعل كانت هذه الجائزة شعبيّة ، لأنّه من كلّ البلاد الاسكنديناڤيّة ، ومن هولاندا وبلچيكا وألمانيا وفرنسا ، تدفّقت الهبات ، التى كوّنت اجمالا ١٧٥ ألف دولار ، سوف يستخدمها الأسقف كمارة لشراء مزرعتين بهدف استغلالهما على يد تعاونيّات مع الامكانيّة أنّ العمّال المزارعين قد يصبحون فيما بعد ملاّكا لهذه المزارع . حصل الفائز على جائزته فى أوسلو يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٧٤ .

بأىّ روح ؟ يقول الأسقف : " ليس لى الغرور الذى يجعلنى أفكّر أنّ هذه الجائزة هى جائزة شخصيّة : ما أنا إلاّ ممثل لكلّ الذين ، فى العالم ، يكافحون للعدالة . انّى أفكّر فى غاندى الذى مات بدون الحصول على مكافأة بشريّة . أفكّر فى أخى

مارتِن لوثر كنج وفى جميع المسجونين لقضيّة العدالة . أفكّر فى دانيلو دولتشـــى / Danilo Dolci الذي يجاهد فى ايطاليا للترقية البشريّة فى المناطق النامية . أفكّر فى أخى البرازيلى باولو فريره / Paulo Freire ، المنفى فى فرنسا بسبب طرق التوعية التى أوحى الله بها اليه . " ...

فيما بعد ، سوف يتقاسم الأرجنتينى بيريز إسكويفيل ، الحائز على جائزة نوبل للسلام فى سنة ١٩٨٠ ، جائزته مع هلدر كمارة . ثمّ ، لمّا كان بيريز مشتركا بجانبه فى اجتماع فلاّحين من شمال شرق البرازيل ، سلّم اليه الوسام الذهبى الذى يرمز الى اكرامه ، موضّحا بقوله : " حصلت على هذا الوسام باسم جميع المضطهين وأعهد به الى الأسقف كمارة الذى لست الاّ تلميذه الصغير . "

فضلا عن ذلك ، أعلنته سبع جمعيّات دكتورا فى العلوم الاجتماعيّة ، أو فى الحقوق ، وبين هذه الجماعات منشآت مشهورة مثل هارڤارد والسربون ولوڤان ومونستر Munster , Louvain , la Sorbonne , Harvard . . وماذا دفعه الى قبول هذه التكريمات ؟ قال : " بما أنّى معتبر كهدّام فى البرازيل ، وأنّ هذه الجماعات تحظى بشهرة ما ، سوف تعطى هذه التكريمات ثقة فى الأفكار التى أحاول أن أنشرها . ولكن ، أكرّر أنّى لا أقبلها أبدا من أجلى . لست الاّ ممثل الناس الذين لا حظّ ولا صوت لهم . " ولذلك ، بعدما حصل على شهادة الدكتوراه فى هارڤارد قال : " انّى أرفع كأسى اكراما لجميع من خدمونا توّاً أثناء الوجبة ، السود وغيرهم ... ومرفقا الاشارة بالكلام ، ذهب ليقبلّهم .

فى السربون ، عندما أعلن دكتورا شرفيّا ، أوحى بانشاء معهد عال للسلام ،

ومثلما يوجد مدرسة حربيّة سوف يدلّ هذا المعهد علي تركيبات هذا الجنون الذى يُدعى الحرب ، وتعمل المخيّلة الخلاّقة فى خدمة السلام .

وتابع رئيس الأساقفة : " أشرت إلى مسألتين عمليّتين قد يستطيع هذا المعهد أن يشرع فيهما : فى المجمع الفاتيكانى كنّا على وشك إدانة الحرب إدانة تامّة ، عندما حضر وفد من العمّال الأمريكان ليقولوا لنا : " لا تدينوا مطلقاً كلّ الحروب ، فقد يسبّب ذلك أزمة اقتصاديّة وبطالة . يرجع لمعهد السلام أن يؤسس جماعة تعاون بين الصناعات تدرس امكانيّات اعادة الصناعات الحربيّة الى وضعها السابق أى الى صناعات سلام . المثل اثانى هو تحديد أسعار التجارة العالميّة . عندما قرّرت البلاد العربيّة أن تحدد بنفسها سعر البترول ، لم يخش هنرى كيسنجر أن يلوّح بتهديد الحرب ! إنّ مشكلة هذه التسعيرة مسألة معقّدة تستدعى دراسات عميقة ، وهذا تحدٍّ آخر لمعهد سلام عال . "

فى نظر هلدر كمارة ، إنّ أحد جذور الحرب هو شعار رومانى ، وثنى ، تبنّاه قادة الأمم وعدد كبير من المسيحيّين ، وهذا الشعار هو : " اذا أردت السلام استعدّ للحرب " . ويقاوم الأسقف هذا المثل السائر ، الذى يدّعى بأنّ الشعوب تتجنّب الحرب باستعدادها لها ، بمثل آخر هو : " اذا اردت السلام استعدّ للسلام .

وهذا المثل الأخير هو كلمة من كلمات البابا بولس السادس . هى شعار جدير بكنيسة يسوع المسيح .

الفصل العاشـر

رجـــل الكنيســـة

يقول هلدر كمارة : " انّى أعزّ معزّة عميقة أمّى الكنيسة ... بدون الكنيسة لما وجد من يدعى الأسقف هلدر ولا كان أسقفا ولا كاهنا ولا حتّى مسيحيًا . ليس الأسقف كمارة جنديًا غير نظامىّ ، بل هو يرغب فى أن يكون أمينا لروما . عندما ظهرت رسالة " الحياة البشريّة " التى كانت موضع نزاع ، على الأقل فى البلاد الغنيّة ، اغتبط هلدر كمارة بأنّه رأى هكذا التنديد " بالاستعمار الخاصّ باحصائات السكّان " لدى الأمريكان الذين كانوا يحاولون أن يغمروا أسواق العالم الثالث بأقراصهم المانعة للحمل . - دعا ماسونيّون الأسقف مرات عديدة ليتكلّم فى محافلهم ، ولكنّه رفض الدعوة لأنّ روما تمنع ذلك . عندما هبّت ريح النزاع فى سنة ١٩٦٨ والسنوات التالية ، حذّر الأسقف الشباب قائلا : " يحاول البعض أن يقولوا : " الآن ، حتّى يظلّ الشخص أمينا للمسيح ، لابدّ من أن يبتعد عن الكنيسة المؤسّسية . بالنسبة الىّ ، هو العكس تماما . أنا دائما محتاج الى أن أكون فى خطّ البابا . "

فى إذاعة " فحص بالأشعّة " فى سنة ١٩٧٠ ، سأله چاك شانسيل :

Jacques Chancel " ألست تقدّميّا ؟ فأجاب الأسقف بمثل السيّارة : " إنّ البعض مُوَسْوِسُون الى حدّ أنّهم يريدون دائما أن يكبحوا ، والآخرين متعجّلون إلى حدّ أنّهم لا يفكّرون الاّ فى الاسراع . فى الواقع ، تحتاج الكنيسة إلى فرملة ومسرّع فى آن واحد . وطُرِح عليه سؤال آخر كان شركا : " هل أنت مع الكنيسة الأفقيّة أو مع الكنيسة العموديّة ؟ فأظهر الصليب الذى على صدره : الصليب أفقى وعمودى معا ، متّصل بالله ومرتبط بالبشر . ليس كلّ ساق من ساقيه وحده صليبا ، بل لا بدّ من الاثنين ، والاثنان متّحدان على الدوام ، مثل ما جمعه المسيح الى الأبد : محبّة الله ومحبّة القريب . "

على أنّ الكنيسة لها وجهان : " هى فى آن واحد الهيّة وخاطئة : الهيّة بمؤسّسها ، ولكنّها فى نفس الوقت سُلّمت الى ضعفنا البشرى . ولذا فهى لا تزال محتاجة إلى أن تضبط نفسها يوما بعد يوم ، وأن تهتدى . لا بدّ من أن تكون لها الشجاعة لتعدّل قوامها الخاصّ ، وإلاّ لن تحصل على القوّة الأدبيّة لتنتقد قوام المجتمع . وهكذا ، إنّ التمسّك بتخليد الرعيّة التقليديّة معارض للمجمع التريدنتينى ذاته : لأنّه يصف الرعيّة كمنطقة تسمح للراعى بأن يتعرّف على سكّانه : الأمر الذى هو محال عمليًا فى مدننا العصريّة . ونحن نعلم أنّ الأسقف كمارة يضع كلّ رجائه فى الجماعات الشعبيّة .

التحريرالمزدوج

غالبا ما يُسأل هلدر كمارة عن لاهوت التحرير ، فيفسّر قائلا :" كلمة " تحرير " هى من كلمات الكتاب المقدّس . عندما كان الشعب العبرانى مرهــقا

فى مصر ، تحت حكم الفرعون ، صرخ نحو الربّ ، وسمع الربّ صراخه ، وأقام موسى ليحرّره . كيف نظنّ أنّ فى أيّامنا ، حيث ثلثا أبناء الله يعيشون فى البؤس ، يظلّ الربّ أصما لصراخ شعبه ؟

" والمشكلة هى أنّ الحلّ الجذرى يستهوى البعض : ففى الواقع يفكّر البعض خاصّة فى التحرير الروحى ، ناسين التحرير البشرى ، بل رافضينه ، لأنّهم حاصلون على خيرات كثيرة . والبعض الآخر لا يهتمّون الاّ بضرورة التحرير البشرى العاجلة الى حدّ أنّهم يقولون : " هل نصلّى ؟ سنجد دائما وقتا للصلاة فيما بعد ! ". كلاّ ، التحريران لا ينفصلان ، ولابدّ للمسيحى من أن يعمل لهذا الغرض ، مثلما الآب ، الخالق ، يريد أن نخلق معه ، كذلك الابن ، الفادى ، يريد أن نفدى معه ، مكمّلين التحرير الذى شرع به : التحرير من الخطيئة ونتائجها .

وسعد الأسقف كمارة بأن يرى هذا التحرير المزدوج ، الروحى والزمنى ، محقّقا فى مؤتمر فيلدلفيا / Philadelphie القربانى العالمى ، فى سنة ١٩٧٦ ، سنة الذكرى المئوية الثانية لاستقلال الولايات المتّحدة . ولتحضير هذا الاجلال الاحتفالى بالمسيح - القربان ، كان الأساقفة الأمريكان قد نظّموا سلسلة مؤتمرات قطريّة لموضوع " الحريّة والعدالة للجميع "، موضوع مأخوذ من " القَسَم للعَلَم " الذى يؤدّيه العساكر . وهكذا كان المؤمنون محمولين على أن يتساءلوا :" هل ينطبق شعارنا الجميل على " الحريّة والعدالة للجميع" ، على عائلاتنا ، على جماعاتنا وعلى منشآتنا ؟ وهل يوجد هذا الشعار حقاً من أجل السود ؟ من أجل المكسيكيّين ؟ ومن أجل البرتوريكيّين ؟ وفى العالم ، هل تسهّل حقاً الولايات

المتّحدة والعدالة للجميع ؟

في شهر يولية سنة ١٩٧٦ انعقد مؤتمر فيلادلفيا . وفيلادلفيا اسم مختار للتحرير ، لأنّه يعني : " مدينة الحبّ الأخوي " ، وقد اختاره مؤسس المدينة ، وليم پن ، رسول المسالمة . كان أحد أزمنة هذا المؤتمر المهمّة الوقت الذي اجتمع فيه على المنصّة رسولان من رسل زمننا ، هما مادرة تيريزة الهنديّة وهلدر كمارة : جسمان ضعيفان وظهران محدّبان قليلا وكأنّهما رازحان تحت ثقل حالات بؤس العالم ، ووجهان متجعّدان ، ولكنّهما مشرقان بالسرور . بحركة عفويّة أخذ رئيس الأساقفة يدي الأم تيريزة وقبّلهما باسم جميع الفقراء .

كان هذان الشهيدان - شاهدا المحبّة - صورة حيّة لبرنامج المؤتمر ، الذي كان عنوانه : " الافخارستيّا وكل أنواع الجوع في العالم " : جوع الى الله ، وأيضا جوع الى الخبز (وعرض يوم صيام مشاركة مع الجياع) ، جوع الى العدالة (قدّم قيصر شافيز بيانا عن حملاته المسالمة مع العمّال الزراعيّين) ، جوع الى الحريّة (ملايين من المسيحيّين مضطهدون من أجل ايمانهم) ، جوع الى السلام (يهدّد سباق التسلّح حقّ الفقراء) ، هذا ما كان الأساقفة الامريكان قد أعلنوه الساعة .

يا للمسافة التي كان الأسقف كمارة قد قطعها منذ مؤتمر ريو القرباني ، أي منذ عشرين سنة ، حتّى مؤتمر فيلادلفيا ! بالنسبة اليه ، منذ الآن ، يوجد رباط لا ينحلّ بين العبادة القربانيّة والكفاح للعدالة . وهذا ما سيقوله في شهر يوليو سنة ١٩٨١ ، بمناسبة المؤتمر القرباني العالمي في لورد / Lourdes .

دعى الى تولوز / Toulouse للاجتماع المنعقد لتحضير المؤتمر وقال : " لابدّ من أن نتعلّم الاجتياز من القربان المقدّس الى افخارستيّة الفقير . لعلّ هذا التعبير قويّ بعض الشيء ، ولكن ما هى الافخارستيّة ؟ بالنسبة الينا ، تحت أعراض الخبز والخمر ، هى حضور المسيح حقيقة . وما هو الفقير ؟ تحت أعراض البؤس - البؤس الحقيقى - هو أيضا حضور حقيقى للمسيح . "

وضّح هذه الفكرة بمثل معاش قائلا : " يوما ما ، فى ريسيف ، جاءنى مؤمنون باكين : كان سارق قد دخل كنيستهم وكسر بيت القربان وذهب به . وقد وجدوا وحدات القربان المقدّسة فى الوحل ، فأتوا يطلبون منّى اقامة ذبيحة تعويضيّة . وقبلت بالطبع . وأثناء اقامة الذبيحة ، لم يسعنى إلاّ أن أمدح حماس الرعيّة القربانى . وقلت بعد ذلك : " أيّها الاخوة ، كم نحن عمى ! انّ اكتشاف وحدات القربان المقدّسة فى الوحل حركت قلوبنا بشدّة . ولكنّ المسيح فى الوحل عندنا ظاهرة تبدو لنا كلّ يوم : فى الأكواخ التى حالتها أحطّ من البشريّة ، فى قلب المستنقعات ، لابدّ من أنّ يقابل ايماننا سيدنا يسوع المسيح حيًا في شخص الفقراء ... " .

أيّـــــة سيـاســـــة ؟

سؤال لا يحبّذه هلدر كمارة : " كم تضمّه من نسمة رعيّتك ؟ " قال المسيح لرسله : " سوف تكونون صيّادى بشر " وليس صيّادى أرواح . " لم أقابل قطّ أرواحا صرف ... "

وتابع : " أعترف أنّ فى الماضى كنّا منشغلين بحفظ النظام الاجتماعى المزعوم الى حدّ أنّنا كنّا نقدّم لمستمعينا مسيحيّة سلبيّة عندما نعظ الصبر والطاعة والحياة الأبديّة . واليوم ، لما أذهب الى أحياء البؤس أقول للناس : " انّه من المحال أن تعيشوا وأن تربّوا أبناء فى هذا الوحل . " فيقولون لى : " لكن ، يا أبانا ، لا بدّ من أن نقبل ارادة الله ." وأجيبهم : " انّ ارادة الله ليست البؤس ، فالبشر هم الذين يخلقون حالات الظلم ، وعلينا ألاّ نقبلها ونكافح لتغييرها .

وما هو الكفاح من أجل التغيير ؟ يقولون له : " ولكن يا أبانا أنت تمارس السياسة ." فيجيب : " إنّ السياسة بالمعنى الواسع والنبيل هى الاهتمام بالخير العامّ . قد نجهل رسالتنا إذا أردنا أن نقصرها على أبعاد خدمة الكنيسة والاهتمام بالأبديّة . فالأبديّة تبدأ هنا واليوم . "

الاّ أنّ الأسقف كمارة يميّز فى هذا الميدان بين دور السلطات الكنسيّة ودور العلمانيّين ، ويقول : " يشبّه القدّيس بولس المجتمع بالجسم الانسانى . فى جسمنا ، كلّ عضو له وظيفته الخاصّة ، لا عضو يمكنه أن يمارس كلّ الوظائف ولا أن يتخلّى عن باقى الأعضاء . وهكذا أيضا الوضع فى المجتمع . على جميع أعضائه أن يهتمّوا بالسياسة بمعنى الخير العامّ . ولكن التعهّد العملى فى حزب من الأحزاب عمل العلمانيّين وليس الاكليريكيّين .

بالنسبة لهذا الوضع ، قد " اهتدى " هلدر كمارة . قال : " فى شبابى ، عملت حسب طلب أسقفى وبرضاه للحزب " الكمالى " الذى كان يسترشد بمبادىء

سالزار وموسّوليني / Salazar et Mussolini، وبالرابطة الانتخابيّة الكاثوليكيّة التي كانت تضغط على المرشّحين لصالح برنامج أعدّته الكنيسة . ولكن سرعان ما فهمت أنّ ذلك ليس دور الكاهن ، ولا بالأحرى دور الأسقف : أن يؤثّر على السياسة من خلال حزب ."

يقول أحد أصدقاء الأسقف : " أثناء سفري الأوّل إلى البرازيل في سنة ١٩٦٣، قيل لي مرارا : انّ هلدر كمارة أعظم رجل شعبي من رجال بلدنا . لو تقدّم لانتخابات الرئاسة ، لحصل على ثلاثة أرباع الأصوات ." فضلا عن ذلك ، في انتخابات سنة ١٩٦٠ ، بعض أحزاب سياسيّة استطلعت رأيه في انتخابه لنيابة الرئاسة ، ولكنّ هلدر كمارة صرف عن نفسه كلّ هذه الاحتمالات .

شيـــوعــــي!

" هلدر شيو ! " (مختصر شيوعي) . نسبوا اليه مرارا هذه التهمة بصور مختلفة : ماركسي ، مدمّر ، أسقف أحمر." كان من بين الطرق المبتذلة أن يهولوا " ببعبع الشيوعيّة ليدافعوا عن حقوقهم أو يقنّعوا مذهبهم الثوري . في فرنسا ، أثناء الاحتلال ، عُلّقت لافتة لصالح خدمة الشغل الاجباري في ألمانيا تقول : " أعطوا شغلكم لتخلّصوا أوربّا من البلشفيّة " (الشيوعيّة الروسيّة) .

في البرازيل أعلوا الخوف من الشيوعيّة إلى قمّته : في هذا الجوّ العدائي ، كان يُعتبر أيّ كلام معتدل هداماً وقد روى الأسقف كمارة هذا الحوار مع قائد عسكري :

" أيّها العميد ، لماذا تقول انّى شيوعى ؟ لماذا ، أنتم ، القادة العسكريّون ، تلاحقون كهدّامين كلّ الذين يعملون ويكافحون للتنمية البشريّة ؟ "

- انّ تفسير ذلك سهل جداً : لأنّه أسهل وأسرع أن تفتح أعين الشعب من أن تحقّق اصلاحات . اذن اذا استمررت فى فتح أعين الناس وفى اعطائهم فكرة اصلاحات لا يمكن أن تحقّق فورا ، أصبحت فى الواقع مهيّجا وهدّاما . وسوف يستفيد الشيوعيّون من يقظة الوعى النقّاد هذه ."

- " الهدم ، أيّها العميد ، هو الحالة التى يعيش فيها الشعب ."

وفسّر الأسقف كمارة بأسلوب موجز قائلا : " عندما أخفّف جوع الفقراء ، يقول الناس انّى قدّيس ، وعندما أطلب لماذا يعانون من الجوع ، يتّهمونى بأنّى شيوعى ."

فى الواقع ، أظهر رئيس الأساقفة بالكفاية اعتراضه على الماركسيّة حتّى انّ هذه الاتهامات تتراءى سخيفة تماما ، وقال " انّى أنتقد الرأسمالية وقاسٍ مع الولايات المتّحدة ، ولكنّى أيضا صعب جداً ازاء سلطات الشرق العظيمة ، مثل روسيا والصين ، التى أعتبر أنها تقلّد الاشتراكيّة أفظع التقليد . وقد يكون الفرق شاسعا بين النظرى والعملى . فنظريّا ، تحدّد الماركسية نفسها ثقافة انسانية ، بل الثقافة العلميّة الوحيدة . نظريّا ، تؤسس الماركسيّة على قيم انسانيّة عميقة : على السلام والتضامن والاخاء بين الناس ، وتحرّر العامل . عمليّا ، أقامت الشيوعيّة الحاجز الحديدى وحائط العار . عمليّا ، تحوّل فكر

ماركس الى عقيدة ، وكذلك نظرته الى جوهر الديانة المغترب والذى يجعل الناس يتخلّون عن حقوقهم وحريّتهم : الأمر الذى أدّى الى الالحاد المجاهد والاضطهاد الدينى . وعمليًا أيضا ، استمرّ الكفاح بين طبقات الشعب ، لأنّ حكم طبقة العمّال المطلق لم يصل الى المرحلة " السمائيّة " التى كان يتوقّعها ماركس ... "

فيما بعد ، يجيب الأسقف على أسئلة طرحها عليه شبّان ، وكانت قد أخذت مبادرتها جريدة " الحياة " الأسبوعيّة :" لو منحك بلد شرعى جائزة السلام ، هل تقبل الذهاب إليه بالسهولة التى ذهبت بها الى اليابان للحصول على جائزة بوذيّة ؟ "

- " لا " ، إنّى أكّدت دائما أنّى لن أذهب إلاّ حيث أكون على يقين أنّه يمكننى أن أتكلّم اخائيًا وحريًا ، وبدون أن تستعمل أقوالى للدعاية . لا يوجد الاّ بلد واحد قبلت فيه أن أكون محروما من الحرّية ، وهو البرازيل ، لأنّه وطنى . "

هل يمكن لمسيحى ، يريد أن يغيّر العالم باسم ايمانه ورجائه ، أن يختار طريقة مثيرة للشبهة مثل طريقة الثورات الماركسيّة ؟

انّى أحترم الذين يقومون بهذا الاختيار بذمّة وصدق . ولكن اذا كان هذا الاختيار هو اختيار السبيل الذى خطّطته عاصمات الشيوعيّة الدوليّة الكبيرة ، وفرضته وناصرته ، فقد يكون الخروج من عبوديّة لوقوع أكيد فى عبوديّة أخرى . الاّ أنّنا نعرف جميعا شيوعيّين قد اختاروا الشيوعيّة لأنّهم وجدوا فيها طريقة ايمانهم بالانسان وخدمتهم لاخوانهم ، وليس لأنّهم يريدون السلطـة حـتّى يعطوها لموسكو

وبكين أو للهاڤان . وعليه ، يمكننا أن نشاركهم فى كفاح لتنمية العدالة . انّى أحبّذ التمييز الذى قام به البابا يوحنّا الثالث والعشرون فى رسالته عن " السلام فى الأرض " قائلا : " انّه من العدل أن نميّز بين الخطأ والذين يقترفونه . الرجل التائه فى الخطأ يبقى كائنا بشريًا ويحتفظ بكرامة شخصه . "

وبالرغم من هذه الايضاحات ، سوف يستمر خصوم هلدر كمارة فى نعته بـ " هدّام " . وهو يقول بابتسامة : أنا بصحبة حسنة وعالية مع شخص كان زميله فى المجمع المسكونى ، هو الكردينال ليينار / Liénart ، أسقف ليل / Lille ، المعروف بالموقف الاجتماعى الذى كان يأخذه دائما . فبينما كان هذا مندّدا به فى روما ومتّهما بميله الى الماركسيّة ، وضع على رأسه البابا بيوس الحادى عشر ، بحركة رائعة أمام الجمهور قبّعة الكردينال ، علما بأنّه لم يتجاوز عمره الستّة والأربعين عاما .

أخذ البابا بولس السادس الأسقف كمارة على عهدته

كان خصوم هلدر كمارة يريدون أن يسكنوا خارج البرازيل هذا الفم الذى كمّوه فى بلده . لاشكّ فى أنّهم قاموا بمساع لهذا الغرض لدى الادارة البابويّة . فى شهر فبراير سنة ١٩٧٨ ، نشرت اشاعة بأنّ الڤاتيكان قد طلب من الأسقف كمارة أن يعدل عن أسفاره فى الخارج ليهتمّ بمطرانيّته الواسعة : سبّب هذا الطلب صدمة فى العالم : فى جامعة لوڤان / Louvain ، رجا ٢٥ كاهنا و٣٠٠ طالب من كليّة اللاهوت ألاّ يكتم صوت نبوىّ " . وكتب الأسقف ريوبيه فى جريدة أورليان "

الأسبوع الديني": لا يجوز حبس أسقف في منطقة أبرشيّته ، لأنّه مع البابا وسائر الأساقفة ، عليه أن يهتمّ بالعمل ، أمينا للروح القدس ، الى أقاصى العالم ، وأنّ الأسقف هلدر كمارة هو حقاً أسقف بهذا المعنى ويحمل الاهتمام بجميع الكنائس . "
وطلبت جماعة أساقفة بلچيكا ذاتها من روما ايضاحات عن هذه المسألة .أجاب الكردينال ڤييو / Villot ، أمين سرّ دولة الفاتيكان ، الى الكردينال سوينانس / Suenens ، رئيس جماعة الأساقفة فى بلچيكا أنّ الخبر المعنىّ غير صحيح ، ومن جهته ، أوضح مكتب صحافة الڤاتيكان ، يوم ٢٢ مارس ١٩٦٨ ، أنّ الكرسىّ الرسولى لم يطلب قطّ من الأسقف هلدر كمارة أن يعرض عن أسفاره ، ولكنّه يعترف بأنّ أحد زملاء الأسقف كمارة قد دعاه الى أن يأخذ بعين الاعتبار ، بصفة خاصّة ، احتياجات مطرانيّته الرعائيّة ... " .

فى كلّ هذه المسألة كان الأسقف هلدر يلزم الصمت . وفى يوم ١٥ يونيو التابع، استقبله البابا بولس السادس . فأعلن الأسقف فى محطّة اذاعة الڤاتيكان:" كان الحديث حاراً . قدّم لى الأب الأقدس كأسا كعلامة مشاركة . ولما كان عالما بأنّى مدعوّ أحيانا لأتنقّل فى العالم ، بارك جميع الذين سوف أذهب اليهم . "

هكذا ، يعلم الأسقف أنّه مأخوذ على عهدة أعلى درجة فى الكنيسة . ولولا ذلك لأدمى قلبه . قال : " قد يكون أعظم خزى لى أن يفقد البابا ثقته فىّ . "وفى الواقع ، فهو سعيد أن يؤكّد : " كان لى الحظّ والفرح أن أحصل على مقابلة خاصّة مع البابا بولس الثانى عشر ، وأن يستقبلنى ثلاث مرات البابا يوحنا الثالث والعشرون بصفة لا يمكننى أن أنساها ، وأن أتقابل مرارا مع الحبر مونتينى، ثم مع الأسقف مونتينى ، ثم مع الكردينال مونتينى ، ثم مع البابا بولس السادس ،

وأخيرا أن أتواجد غالبا مع البابا يوحنّا بولس الثانى . "

البابا يوحنّا بولس الثانى فى ريسيف

فى قاعة الاقامة التى يستقبل الناس فيها الأسقف هلدر ، كانت تجلب نظر الزائر فورا صورة شمسيّة تمثّل البابا يوحنّا بولس الثانى ورئيس الأساقفة كمارة يتعانقان بحماس . وكان قد حدث هذا يوم ٧ يولية سنة ١٩٨٠ ، فى رسيف ، بمناسبة أولّ سفر البابا الى أمريكا اللاتينيّة ، الذى كان سفرا سبق ترتيبه باتقان .

قبل هذا السفر بشهر ، كتب البابا لمؤتمر أساقفة البرازيل ، طالبا منهم أن يذكروا له عشرة أسئلة تظهر لهم أسئلة أساسيّة ، والعشرة أماكن المناسبة لمعالجة هذه الأسئلة ، وتمنّى البابا أن يوضّحوا له وجهة نظر الأسقف المحلى . بالنسبة الى ريسيف ، أوحى هلدر كمارة الى قداسته بالكلام عن مسألة الأرض . ويقول الأسقف : " أبديتُ رأيى لقداسته " . وقبل حضور البابا بأسبوع ، حصل كلٌ من العشرة أساقفة المعنيين على نصّ العظة التى كان البابا يوحنّا بولس الثانى مزمعا أن يلقيها فى مدينة الأسقف كمارة . كنّا مدعوّين أن ننقد ونصحّح ما نظنّ نقده وتصحيحه ضروريّا . فجُمعت الأشخاص المعنيّون مباشرة : زعماء الفلأحين ورؤساء الأكواخ وأعضاء لجنة الأرض الرعويّة والمحامون . قُرأت الخطبة المعدّة ، وكان لها وقع عظيم فى نفوسنا : لأنّها كانت ، من عمق القلب ، الكلمة التى كنّا نتمنّاها ."

أثناء هذا الزمن ، كان البعض يقولون - بل يتوقّعون - أنّ البابا يوحنّا بولس الثانى يؤنّب الأسقف كمارة .ولكن ، عندما نزل البابا ، الآتى

من سـالڤادور - باهية ، من الطائرة بعد ظهر يوم ٧ يولية فى القاعـدة الحربيـة الجوية ، توجّه نحو رئيس الأساقفة كمارة ، الذى كان ضائعا وسط الأزياء العسكريّة ، وضمّه طويلا إلى صدره . ثم وقف الرجلان جنبا إلى جنب فى السيّارة البابويّة حيث تعلّق بها ستّة عشر رجلا مسلّحين ليؤمّنوا سلامة الراكبين . - بضعة أيّام قبل ذلك ، طلب شخص غير مسمّى بالتليفون " يوميات برنامبوكو " (وهى صحيفة ريسيف) وقال : " اذا رأينا كمارة بجانب البابا سوف نقتله . " ولكنّ رئيس الأساقفة كمارة كان مصمّما على أن يعرب شعبه عن اكرامه للحبر الأعظم . وعبر البابا وهلدر كمارة ثلاثين كيلومترا وسط جمهور مبتهج .

فى ريسيف ، أعدّ هيكل القدّاس الاحتفالى على جسر واد يطلّ على روضة هائلة حيث تجمّع ثلاث مائة ألف فلاّح من كل منطقة البرنامبوك . وقال راعيهم كمارة : " أيّها الحبر الأعظم ، أنا على يقين أنّك تريد أن تقبّلهم جميعا واحدا واحدا . فاسمح لى بأن أقبّل يديك باسمهم كلّهم . فصاح الجمهور مشدّدا على مقاطع الكلمة : " ملك ، ملك ، ملك ، الأسقف هلدر ملكنا ! "

ومن جهته ، بدأ البابا يوحنّا بولس الثانى خطبته بهذه الكلمات : " عزيزى الأسقف هلدر ، أخ الفقراء وأخى . " وقد برزت من عظته الطويلة بضع كلمات أساسيّة جلبت تصفيقاً حاراً : " الأرض هبة الله ، هبة أعطيت لجميع الكائنات البشريّة . فلا يجوز أن توزّع هذه الهبة بصفة ألاّ ينتفع بها الاّ عدد بسيط من الناس وكذلك من فوائدها . " وبالتالى ، لابدّ من أن تستخدم القوانين حتّى تحقّق خير كلّ الناس وليس فقط مصالح أقلّيات أو أفراد . " ونوّه البابا أيضا بشركات عدّة دول تكوّن فى المنطقة أملاكا شاسعة وتطرد الملاّك الصغار . وعندمـا تنتزع

تنتزع هذه الشركات أرض الفلاّح وترمى به فى ارتحال ملىء بارتيابات فى اتّجاه عواصم كبيرة ، أو لا تضمن له حقوقه فى ملكيّة الأرض الشرعيّة ، تؤكّد هكذا أنّها تحتقر حقوقه كانسان وكابن الله .

وتلفّظ أيضا قداسة البابا بهذه الجملة التى أثّرت كالصدمة : " لا يجوز أن يكون الانسان آلة انتاج ، فالعمل غاية للانسان وليس الانسان غاية للعمل . "

لاشكّ فى أن كان لمثل هذه الأقوال وقع مختلف فى نفوس أقسام المستمعين . كانت المنّصة الرسميّة فى جانب من الهيكل ، وفى الجانب الآخر ضيوف أسقف ريسيف ، وهم أربعون فلاّحا من برنامبوك . وهم الذين - وليس الشخصيّات الكبيرة - سوف يتناولون القربان الأوائل من يد البابا يوحنّا بولس الثانى .

بعد نهاية الاحتفال ، تابعت مسيرة الحبر الأعظم ورئيس الأساقفة عبر مركز ريسيف السكنى ، الذى هبط الليل عليه . أخيرا ، قاد هلدر كمارة الحبر الأعظم الى مقرّه . قال الأسقف : " أردت أن أريه غرفته ، ولكنّنا مررنا قبل ذلك بالمعبد ، وهناك أكبّ البابا على الصلاة ، وبعد بضع دقائق كان قد استردّ قواه . وحينذاك نشر الأسقف أمام البابا خرائط ريسيف وأراه مواقع الأكواخ .

فتنت راعى ريسيف الطريقة التى انقضى بها سفر البابا يوحنّا بولس الثانى ، فقال : " نطق الحبر الأعظم بكلّ ما أراد قوله . وفى هذه المرّة ، لا يمكن للصحافة والتليفزيون أن تبترا خطبه مثلما فعلتا لمحاضرات مدللين وبوئبلا / Puebla . "

فى الواقع ، تظهر الحكومة البرازيليّة مرتبكة . ففى كلّ يوم كانت الأشخاص الرسميّة تنوّه بأهميّة كلام البابا ، ولكن ، فى نفس الوقت ، كانت مقالات الصحافة الافتتاحيّة تحاول أن تجد تناقضات بين مؤتمر أساقفة البرازيل والحبر الأعظم . ولكنّ السكّان لا ينخدعون : فيظهر لهم البابا يوحنّا بولس الثانى كنصير العدالة ، وليس كالذى أتى ليسترجع النظام فى كنيسة البرازيل .

شعر الأسقف كمارة برضى آخر ، كانت المرحلة التالية للبابا فى فورتليزة ، مسقط رأس الأسقف كمارة وكرسىّ صديقه الأسقفى الكردينال ألويزيو لورشيدر. / Aloiso Lorscheider افتتح البابا هناك المؤتمر القربانى الدولى العاشر ، ذا الموضوع المعبّر :" الافخارستيّا والهجرات " . مثل مؤتمر فيلادلفيا ، يربط هذا المؤتمر بين حضور المسيح المزدوج فى القربانة وفى الأشخاص ، وبالأخصّ فى المهاجرين .

فى السنة التابعة ، حصل الأسقف كمارة على علامة مودّة جديدة من جهة البابا يوحنّا بولس الثاني . قد كتب له البابا : " عند اقتراب يوم ١٥ أغسطس (سنة ١٩٨١) الذى تحتفل فيه باليوبيل الذهبى لكهنوتك ، علمنا بفرح أنّك تتأهّب لاحياء ذكرى ذلك الاحتفال بصحبة الاكليروس وشعبك ، وأيضا الثمانية كهنة المحترمين زملائك ، الذين رُسموا معك فى نفس اليوم سنة ١٩٣١ ، والذين سوف يقدّسون معك حسب رغبتك . نحن نشارككم بفرح فى هذا الاحتفال . " وذيّل البابا كلامه هذا بتلك العبارات : " يعرف الجميع كم غمرك فضل الله بهبات وقريحة وتقوى ... قد قمت بعدّة رسالات بقيمة لا تثمّن ... كان لك الله واخوانك قطبَي قوس واحد تنبعث منه شرارات محبّة ... "

يوازى هذا الاكرام فى نظر الأسقف هلدر أكثر من جميع التقديرات الشرفيّة . يجيب على الذين يندهشون لعدم ترقيته الى منصب كردينال : " قد حصلت على هبة الحياة ثمّ ، فى المعموديّة ، على هبة الحياة الالهيّة ، ثمّ فى التثبيت ، وبصفة خاصّة ، على الروح القدس وهباته السبع ، ثم على الكهنوت ، وفى الأسقفيّة ، على تمام الكهنوت . ماذا يمكننى أن أتمنّاه أكثر من ذلك ؟ "

فى سنة ١٩٨٤ ، عند وصوله الى الحدّ القانونى فى سن الخامسة والسبعين، قدّم الأسقف كمارة استقالته الى البابا يوحنّا بولس الثانى ، الذى قبلها فى السنة التالية ، وعيّن ليخلفه الأسقف خوسيه كردوزو سوبرينهو José Cardoso Sobrinho ، راهباكرمليًا فى سنّ الواحدة والخمسين ، الذى كان الى ذلك الحين رئيس أساقفة بركاتو / Paracatu . وكان يقول الأسقف هلدر : " قلت للحبر الأعظم انّ الذى اخترته هو فى نظرى الذى اصطفاه الله . " وفى الواقع ، فى يوم ١٦ يولية سنة ١٩٨٥ ، فى عيد سيّدة الكرمل ، شفيعة ريسيف ، قدّم هلدر كمارة الأسقف خوسيه للشعب أجمع كالراعى الجديد الذى اختاره الله . وأظهر رئيس الأساقفة الشابّ كلّ رقّة ازاء سلفه ، وطلب منه أن يبقى فى ريسيف ، قائلا : " انّ الرعيّة لنا نحن الاثنين " . " وأجاب الأسقف خوسيه الذين كانوا يظنّون أنّه محافظ جداً : " أنا أحافظ جداً على أراء الأسقف هلدر كمارة . " ولكن فيما بعد سرعان ما ظهر أن رعائيات الأسقف سوبرينهو كانت تختلف عن رعائيّات هلدر كمارة .

ماذا عمل رئيس الأساقفة السابق بعد احالته إلى المعاش ؟ يقول الأسقف هلدر : " قال لى يوحنّا بولس الثانى : " سوف تنسحب من أعمال الرعيّة ، ولكن

اليس من السفر ، بما أنّ الله حفظ لك الصحّة والذكاء ، فلابدّ لك من المتابعة . "
" سوف أتابع اذن رسالتى : أن أعظ السلام من خلال العدالة والمحبّة . وخارج هذه الأسفار ؟ " لم أقم قطّ بمشاريع شخصيّة . كان دائما طموح حياتى الكبير أن أتطابق قريبا جداً مع ما يظهر لى كارادة الله بالنسبة الىّ . يوم وصولى الى الأبديّة ، أودّ أن يمكننى المقارنة بين خطّة الله فى يد وكلّ حياتى فى اليد الأخرى . آه ! كم أكون سعيدا اذا وُجد هذا التطابق بالرغم من نقائصى ! "

الفصل الحادى عشر

حياة هلدر كمارة الخاصّة

يخلّد شارع هنريك دياز ، أحد شوارع ريسيف ، ذكرى زعيم أسود كافح فى القرن السابع عشر الاستعمار الهولندى . على جانب هذا الشارع توجد كنيسة " الحدود " ، أعدّ سكن فى ملحقاتها للأسقف هلدر .

ذهب ليكن هناك فى أوائل سنة ١٩٨٦ بعدما ترك القصر الأسقفى . وهناك ، يتابع رئيس الأساقفة القديم حياته فى الفقر ، ولكن ليس فى البؤس . يتمتّع فى هذا السكن بثلاث حجرات : فى الحجرة الأولى توجد طولة مستديرة وثلاثة كراسى وسرير معلّق من الأمازونيّة نُصب أمام الشبّاك ، ويروق الأسقف أن يتأرجح عليه منصتا للموسيقى . وهذه الحجرة هى حجرة الاقامة . وتُستخدم الحجرة المجاورة كمكتب : فيها مقعد وطاولة كبيرة تحمل أوراقا يظلّ قسم صغير منها فارغا يستعمل للكتابة . والحجرة الثالثة هى حجرة راحته . تسكن بجواره راهبات القدّيس منصور دى بول التى تدير مدرسة ممرّضات ، وهى التى تحمل الى الأسقف كلّ الوجبات فى طنجرة مقسّمة الى خانات .

يعيش الأسقف كمارة وحده . هو الذى يفتح للزوّار الذين يقرعون الباب

الخشبي ، ذا اللون الأخضر الباهت ، أو يضربون اليدين ثلاث مرّات علي الطريقة البرازيليّة . فيظر هلدر كمارة صاحب السمع المرهف ويدخل الزائر الى حديقة صغيرة حيث تحمرّ شجرة ورد .

انّ هذا الحبر لا يملك سيّارة . وعلى كلّ لا نتخيّله مكبًا على مقود ، ولا لاجئا إلى خدمات سائق رسميّ . ولكن لا تنقصه سيّارات تقلّه من مكان إلى آخر . فعندما يخرج الى الشارع ويمشى بضع خطوات تقف عربة ويقول سائقها : " أيّها الأسقف ، أين يمكنني أن أصحبك ؟ " لأن كلّ الناس يعرفونه . وفى السيّارة ، أكانت سيّارة شعبيّة قديمة أو سيّارة أمريكيّة من أعلى طراز ، يدور الحوار ، مع سائق سيّارة أجرة ، مع ربّة عائلة أو رجل أعمال . يطرح السؤال ويستمع ، منحنيا نحو السائق ، سعيدا بهذه العلاقات التى لا يمكنه الاستغناء عنها .

ومثل الشخص الأكثر أمانة بين المحافظين على التقاليد ، نجد هذا الأسقف فى هندامه يرتدى الثوب الكهنوتى ، ويقول : " لعلّى أحد أواخر الذين يحافظون على ارتدائه ، ولكنّ ضبّاط العساكر فى بلدى يحترمون على الأقل زيّي الرسميّ." فى الماضى ، فى الولايات المتّحدة ، جرّب ثوب رجال الدين الانجليكان ، ولكنّه لاحظ أنّ هذا المظهر لا يناسبه فعرض عنه نهائيًا . لا أثر للّون البنفسجى على ردائه ، والصليب الذى على صدره من خشب . لديه خاتم واحد رعويّ ، الخاتم الذى أهداه البابا بولس السادس الى جميع آباء المجمع المسكونى ، ومع ذلك لا يضعه فى اصبعه الاّ عندما يحتفل بالافخارستيا . وعلى رأسه لا يضع قبّعة الاّ أنّه أثناء السفر ، عندما يترك الطقس الاستوائى ، يحمى الرأس بقبّعة عامل ، بخوذة ، أو بقبّعة عسكريّة بولانديّة ، لا علاقة لها بالكهنوت ، أو يتلفّف فى وشاح كبير .

ومأكله ؟ يقول روبير ماسون / Robert Masson ، رئيس تحرير مجلّة " فرنسا الكاثوليكيّة " : " انّه يقضم أكثر ممّا يأكل . " ففى وجبة مع بضعة أشخاص ، كان قد قبل بكلّ طيبة خاطر أن يشاركنا فيها ، جعلنا نخجل : لأنّه بعدما انتهى من أكل بيضة ترك صحنه جانبا ، وكانت نهاية وجبته . أمّا نحن فكنّا فى أولها ... لعلّه فقد الشهيّة يوم رأى من نافذة غرفة طعامه عددا كبيرا من الرؤوس الجائعة تنظر اليه ... "

رجل أخويّ

سأل چاك شانسل الأسقف هلدر فى بداية الفحص بالأشعّة السينيّة الذى ذكرناه :

- " هل تسمح لى بأن أدعوك " سيّدنا " ؟

- فقال : " قل لى أخى " .

كان هذا الشعور بالأخوّة الانسانيّة راسخا بعمق لدى الأسقف كمارة ، الذى يقول : " أمام كلّ خليقة بشريّة ، أيّة كانت لغتها ، عرقها أو ديانتها ، يمكن الانسان بل يجب عليه أن يفكّر : ها هو أخ ، ها هى أخت ، ويمكنه بل يجب عليه أن يتابع : أخ بالدم ، أخت بالدم ، لأنّ دم المسيح بالذات قد سفك من أجل كلّ البشر . "

بين جميع اخوانه يفضّل الصغار والفقراء الذين تطابق يسوع نفسه معهم .

يحكى فرنسيس مايور/ Francis Mayor ، رئيس تحرير " تليراما / Télérama " :
" فى يوم ما قال لى الأسقف كمارة بغتة : " أتعلم ، انّى رأيت المسيح الملك ... "
وكان ذلك فى نظرى كأنّها أنوار برّاقة لبصّارين وُجدوا فى لورد أو فاطمة ! ولكن
لا . فشرح لى : " كنت وصلت منذ لحظة الى ريسيف متضايقا ، فى قصر رئيس
الأساقفة الذى أقيم فيه . وفى صباح ما ، رأيت على العتبة فقيرا ، شحّاذا ،
فى الغالب . كان يدير قبّعته بين يديه ولا يجرؤ على أن يتقدّم . فقلت له : "
تعال ، أدخل ، لا تخف ، هذاالمنزل هو منزلك . ولكنّه ظلّ ثابتا . فكرّرت له
كلامى : " تعال ، أنت فى بيتك ، امش على السجّاد . ولكنّه لم يجرؤ بعد -
وعليه ، خرجت لآتى به ، سحبته بذراعه و ... أجلسته على عرش رئيس
الأساقفة ، وقلت : - آه ! ولكن ها هو المسيح الملك ! ...رأيته ، أقسم لك ! "

ولكنّ التفضيل لا يعنى ابعاد الآخرين ، فلا يزال الأسقف كمارة يفتح قلبه
للجميع . لم يرفض قطّ الحوار ، حتّى مع ضبّاط العساكر فى زمن الحكم
الاستبدادى . أجل ، انّه اضطرّ أن يرفض بعض دعوات رسميّة حيث وجوده كان
يكفل النظام القائم . ولكن لم يبخل قطّ بوقته لحديث أو مراسلة : " انّى أجيب
على جميع الرسالات - ما عدا الرسالات التى ترغب في توقيعى ليس الاّ . "

يؤكد أصدقاء الأسقف هلدر أنّهم لم يسمعوه قطّ يغتاب أحدا ، رغم أنّ
التجربة تكون سهلة عندما يرى أنّ خلفاءه يقومون بعكس ما فعل ، مثلما حصل
حينما طردوا كلّ الفرقة الرعويّة الريفيّة التى كان قد رتّبها ...

قال يوما ما : " الأفضل أن أسمع الربّ يقول لى ، يوم الدينونة : " أنت لن

يحكم عليك لأنك امتنعت عن أن تحكم على اخوانك . " ولنا أيضا منه هذا الاعتراف : " لا توجد نقطة من البغض فى قلبى . "

فيلحّ الناس قائلين : " أحقًا ؟ ألم تشعر قطّ ببغض ضدّ أحد ، حتّى عندما نهوك عن الكلام فى ذات بلدك ، حتّى عندما كانوا يهدّدونك بالموت ؟ "

لا ، حقًا . ولكن ليس لى استحقاق كبير . ان لم ينبت الحقد فى قلبى فلأنّ لا أبى ولا أمى زرعاه فيه . لم أحسّ قطّ فى المنزل بأصغر حقد ضدّ أحد . "

ضد تجربة الكبرياء

يقول الأسقف كمارة فى صلاته : " يا ربّ ، احم الأنبياء من تجربة الكبرياء التى تجعلهم يظنّون أنّهم صاروا ملوكا ! " . نحن فى خطر أن نفقد عقلنا حينما الشعب فى بساطته يشرع فى اعتبارنا رجالا عظاما أو قدّيسين . لحسن الحظّ ، لنا طرق لحماية أنفسنا . على سبيل المثال ، عندما أحضّر نفسى لمقابلة جمهور المستمعين الذين يصفّقون فرحا ويهتفون لى ، أدير وجهى نحو المسيح وأقول له بكلّ بساطة : " يا ربّ ، هذا هو دخولك الانتصارى الى أورشليم ، ولست أنا الاّ الأتان الصغير الذى يحملك . "

" تتعادل الهتافات والانتقادات . وقد تعلّمت أنّ المناقضة تساعد أكثر من المديح . فلابدّ من قبولها كلقاح ضد الكبرياء . يجب أن نستقبل الافتراء ،

خاصة الافتراء الذي لا جواب لنا عليه ، كطريقة يستخدمها الربّ ليقودنا الى بعيد على طريق الفقر . ولا يبقى لنا الاّ أن نفوّض أمرنا الى الربّ حتّى ، اذا أراد ، يقنع المناقض وأن يصحّح الافتراء . ويتمكنّ الربّ من أن يقوم بعمل معجزات مدهشة ! "

أجل ، انّ الأسقف كمارة يمكنه أن يعتمد على شعبه وعلى أصدقائه الشخصيّين ليحافظوا على تواضعه . يقول : " أنّهم يذيعون عنّي بعض هذه الحكايات المضحكة التى تنطق بأكثر مما تعبّر عنه الخطب . " وها هى حكاية يقصّها بنفسه ، تجعلنا نظنّ أنّه يبحث عن أن يعرض الأنظار على ذاته لدى وسائل الاعلام .

يحكى هلدر كمارة : " متّ الساعة ووجدت نفسى فى السماء . استقبلنى القدّيس بطرس بحماس " أيّها الأسقف هلدر ، أدخل بسرعة ! ينتظرك الأصدقاء وقد جهّزوا لك احتفالا ... " ولكنّى لا أتحرك . يندهش القدّيس بطرس : " هيّا أيّها الأسقف ، أدخل ، لعلّك تظنّ أنّ من واجبك أن تقدّم أوراقا ؟ " كلاّ ، ليست أوراقا . " لا أتحرك بعد ، والقدّيس بطرس لا يفهم سبب ذلك ، فيقول : " عادة جميع من يصلون إلى هنا يسرعون فى الدخول ، وأنت تبقى خارجا ... " وقتئذ تقول الحكاية انّى تطلّعت بدون جدوى يمينا وشمالا ، ثم انتهيت بميلى نحو القدّيس بطرس لأطلب منه بصوت خافت : " يا قدّيس بطرس ، ألم تنس أن تدعو الصحافة ؟"

" فى الحقيقة ، هى وسائل الاعلام التى تسرع الى الأسقف . يشهد على ذلك فرنسيس مايور قائلا : " تتنازعه اذاعات العالم التلفزيّة . " وكنّا نسمّيه مزاحا الأب كاميرا (وهى آلة التصوير) . "

السهر الليلى

كلّ ليلة ، عندما يرقد هلدر كمارة فى سريره ، حوالى الساعة الحادية عشرة ، يضبط منبّهه على الساعة الثانية بعد نصف الليل ، وفى تلك الساعة يقوم من نومه ، وهي ساعة سهره . فى سكون الليل - حيث لا يسمع التليفون ولا تفاجئه زيارة - يفتح باب غرفته التى تطلّ على خورس الكنيسة ويكرّس نفسه للتأمّل .

" انّها عادة اتّخذها منذ سنىّ الاكليريكيّة : " كنت قرّرت أن أسلّم ذاتى بلا قيد أو شرط لله ولقريبى ، ففهمت أنّه يجب علىّ اطلاقا أن أكرّس وقتا لأسمع الربّ وأتوجّه اليه بالصلاة . ومنذئذ ، أستغلّ السهولة التى أعطانى الله ايّاها ، وهى أن أستيقظ ليلا ، ثم أرقد تانية بدون صعوبة . " " وأرجو ألاّ يتخيل الناس أنّى منذور لحياة التوبة بصفة خاصّة ! فليست اماتة بالنسبة لى أن أسهر وأصلّى . " "انّنا نرتكب ظلما نحو انفسنا ان لم نعطها فرصة لتتعافى ، مثلما نعطى راحة لجسدنا . " " أثناء النهار ، انّى أتشتّت : تقودنى عيناى وذراعاى وسيقانى الى كلّ أنواع الجهات ، وتقودنى رأسى يعلم الله أين . خلال أزمنة الليل المفضّلة هذه ، أحاول أن أستعيد وحدة كونى ، ووحدة حياتى ، وهذه الوحدة هى وحدتنا فى المسيح منذ عمادنا . "

حالما نكون واحدا مع المسيح ، ما أشدّ سرورنا عندما نتحدّث مع أبينا السماوى ، باسم جميع البشر ، وجميع الأماكن والأزمنة ... عندما أصبح واحدا ، المسيح وأنا ، يمكننا أن نعبد أبانا ، ويلذّ لى أن أتذكّر كلّ ما رأت عيناى من أجمل الأمور فى حياتى وأشـــكره وأطلب منه الغفران ، ويلذّ لى أن أقول آنذاك :

" يا ربّ أنا حقيقة سفير الضعف البشرى ، لأنّ الخطايا التى أرتُكِبَت ، امّا أنّى ارتكبتها أو يمكننى أن أرتكبها ، وأقدّم له تعالى كلّ مطالب البشر ، اخوانى . ومع المسيح أيضا أحيا ثانية كلّ مقابلاتى اليوميّة . ألقى ثانية ربّة البيت التى أطلعتنى على مشاكلها مع زوجها وأولادها وعلى الجوع فى منزلها . وأرى أيضا من جديد هذا العامل الذى كان هناك فى الشارع ، يجمع صناديق القمامة ، ولم يجرؤ أن يسلّم بيده ، وكنت أجبره على ذلك قائلا : " يا صاح ، الذى يوسّخ أيدينا ليس هو الشغل بل الأنانية . " هذا الرجل ، فرنسيسكو أو أنطونيو ، يذكّرنى بجميع عمّال العالم . وحينذاك أقول لأخينا المسيح : " يا ربّ ، بعد موتك بألفي سنة ، لا يزال الشرّ والظلم دائما عظيمين . "

أثناء سهره تنشأ مزامير ومقطوعات شعريّة وتأمّلات - وفى صلاة الزمن الحاضر " كتاب الفرض المستعمل فى البلاد الناطقة بالفرنسيّة ، يتلو صلاة السحر ، متّحدا سريًا بجميع الرهبان والراهبات الذين ، عبر العالم ، يرتّلون صلاة الليل . مثل الحارس الذى ينتظر الفجر ، يتأهّب لقدّاس السحر ، لأنّه بعد سهره يرتاح ساعة ونصف ثمّ يقوم بتقديم الذبيحة الالهيّة فى كنيسة داس - فرونتيراس / Das Fronteiras التى ليست بعد كنيسة رعويّة . ويلتفّ حوله أثناءها فقراء وبعض أهل الحيّ وراهبات وزوّار ، يستقبلهم بعد الاحتفال حول فنجان قهوة .

يرافقه دائما حضور المسيح

طلب منه جاك شانسيل يوما ما : " أيّها الأسقف ، انّى لك هذا النشاط ؟ "

- من قدّاس كلّ صباح . فى الافخارستيّا توجد هذه المقابلة الشخصية مع لمسيح . حقًا ، انّه قبل ذلك موجود فينا ، ولكن عندما نتّحد به فى القربان المقدّس يصبح وجوده أقوى . "

فى مرّة أخرى ، أفضى الينا بسرّ : " كلّ صباح أشعر كأنّى أقوم بقدّاسى الأوّل . فالقدّاس هو قمّة كلّ يوم ، انّه يرافقنى طوال اليوم . " ويمكنه أن يقول مثل مادرة تريزة : " انّى أقتات بالمسيح كلّ صباح فى الافخارستيّا ، ثم أقابله طوال اليوم فى اخوانى . هو نفس شخص يسوع على الهيكل وفى الشارع . "

هذا الحضور الذى لا يبعد عنه ، يشعر به من جديد هلدر كمارة بطريقة كاملة فى النهار عندما تسنح له فترة راحة صغيرة . مثل فى مساء أكتوبر سنة ١٩٧٧ ، حيث كان على وشك القاء محاضرة فى مدينة ليل : امتلأ قصر الألعاب الرياضيّة ، واستعدّ عشرة آلاف شخص لاستقباله بالترتيل مع فريق " ايقاع وصلاة " . ولكنّه كان بعد فى أثينا صباح هذا اليوم . وكان مشغولا جداً بعد ظهر اليوم ، ولم يأكل هذا المساء الا ربع شريحة من " الجنبون " ، وتقاطيع وجهه مشدودة . ويحكى شاهد : " حوالى الساعة الثامنة الا الربع مساءً دخل إلى خلفيّة المسرح وصافح بعض أشخاص ثمّ ذهب ليجلس فى ركن مظلم حيث ظهر مهبوطا خائر القوى . ألم تنهكه كلّ مقابلات اليوم ؟ كنّا قلقين ، فاقترينا منه بحذر ، مستعدّين أن نعرض عليه مشروبا منشّطا . ولكنّنا وقفنا مذهولين : كان الأسقف مستغرقا فى الصلاة . وبعد قليل وجدناه راكعا على أرض من الأسمنت ، وأثناء أكثر من ربع ساعة غاب عنه كلّ ما يحصل حوله ، وعندما نهض كان مشعًا ، زال عنه كلّ أثر من تعب ، وتقدّم لمقابلة الجمهور الذى حيّاه بحماس . "

روح فرنسيسكانيّة

يرتاح الأسقف كمارة لبعض القدّيسين البسطاء : ها هي كلمة القدّيس منصور دي بول تغبطه : " لابدّ من أن نغزو بالمحبّة حقّ العطاء . " ويعزّ بصفة خاصّة القدّيس فرنسيس الأسيزي : فهو يحبّ الطبيعة مثله ويشعر بأنّه متضامن مع سائر المخلوقات فيقول : " نحن أخوة الجوامد " : نشغل مكانا ونخضع لقانون الجاذبيّة . نحن اخوة النباتات : انّنا نولد ونتنفّس ونأكل ونكبر ونموت . نحن اخوة الحيوانات : هي تتألّم وتسمع وترى . نحن نشارك في طبيعة الملائكة حتّى وفي عقل الله وقدرته الخلاّقة . "

هو يمدح أختنا الأرض قائلا : " هي في مجرّتنا الصغيرة ليست الأرض الاّ ذرّة تراب . ولكنّها سوف تحتفظ دائما بالمجد لأنّها اختيرت لتجسّد ابن الله ... انّنا لا نكرم بالكفاية ذكاء الربّ ومخيّلته الخلاّقة ، هو الذي خلق مليارات الكواكب لتتلألأ بعيدا وتبهج نظر البشر ليلا ... عندما يبدأ النزول الحقيقي على الكواكب ، قد يمكن الانسان أن يقيس كم أنّ الربّ أكبر وأعظم سخاء الى أقصى حدّ ممّا نتخيّله قطّ . "

لا ينطبق البتّة على الأسقف كمارة المثل القائل : " قدّيس كئيب يرثى له لأنه بعيد عن القداسة " . فالفرح يضيء وجهه : في يوم من شهر مارس سنة ١٩٧٥ ، في السيّارة التي كانت تقلّه من جرونوبل الى ليون / de Grenoble à Lyon ، كان يسرّ الى أحد رفاق سفره : " انّي وقّعت مع الله عقد فرح أجدّده أربع مرات في السنة : ثالث أحد ما قبل

الميلاد ، الأحد الرابع من الصوم الكبير (١) ، يوم ١٥ أغسطس ويوم عيد القدّيس فرنسيس . "

يحبّ الأسقف كمارة الأزهار ، ويعشق بصفة خاصّة " الورد " وله غرس منه فى حديقته . " فى صباح يوم كنت خارجا من منزلى ولاحظت أنّ النمل قد أكل أوراق شجرة وردى ، واعتبرت هذا مسألة خطيرة . فانحنيت وأخذت نملة واحتفظت بها فى يدى ، ثمّ نظرت اليها وجها لوجه وقلت لها : " لماذا تأكلين شجرة وردى ... ؟ " ولكنّ الذى حصل أنّ النملة أعطتنى درسا : كانت فى يدى ، مرتعدة من الخوف وتنظر الىّ . ثمّ أجابت " لماذا يكون لك وحدك الحقّ فى محبّة شجرة الورد ؟ "

ببساطة الأطفال ، بينما يهمل مناقشات اللاهوتيّين ، يكنّ بتقوى شخصيّة لملاكه الحارس ، ويقول : " بما أنّى أجهل اسمه الحقيقى ، أدعوه باسم " خوسيه " ، الاسم الذى كانت والدتى تدعونى به عندما تجدنى فى حالة ضيق ، قائلة : " تشجّع يا خوسيه ! " وكان الأسقف كمارة يفوّض أمره الى ملاكه الحارس فى الأزمنة الصعبة . هكذا فعل يوم ٢١ ديسمبر سنة ١٩٥٠ عند مقابلته الأولى مع الأسقف مونتينى - الذى سيكون البابا بولس السادس - والذى كان يرغب فى

(١) فى هذين الأحدين ، تهتف الكنيسة بقول : " افرحوا " .

اقناعه بضرورة انشاء مؤتمر أساقفة البرازيل . في الليلة التي سبقت المقابلة ، وفي ساعة سهره المعتاد ، نهض ولاحظ أنّ شيئا يسيل من أذنيه ، وكانت دماءً . وفي صباح الغد عندما حضر اكليريكي برازيلي ليصحبه للقداس ، أدرك أنّه لا يسمع شيئا . " وعليه ، قلت لخوسيه (ملاكي الحارس) : " لو لم يكن مشروع هذا المؤتمر الاّ فكرة شخصيّة ، أقبل ألاّ أسمع شيئا ! ولكن ، اذا كان في خطّة الربّ ، اسمح لي بأن أسمع وأن يفهمني الآخرون ". وقام خوسيه بواجبه خير قيام : وسمعت كالعادة . ولكن ، عندما خرجت من الفاتيكان ، لم أسمع من جديد . فكنت أتّصل بالآخرين بحركات أو ببطاقات صغيرة . وكانت بداية تمزيق طبلات الأذنين " .

طفل مريم

مثل كلّ مسيحي ، يرغب هلدر كمارة أن يكون طفل العذراء مريم ، يكنّ لها بمحبّة يعبّر عنها بلهجات حنان ، لأنّه يريد أن يكون شاعرها ومغنّيها الجوّال :

يا فجر صاف للغاية ، الذي يأتي الينا بشمس المحبّة ...
ابنك ولد قبل الآن ، ومع ذلك لا تزالين حبلى ، ممتلئة نعمة ، ممتلئة من الله ...
انّك مغمورة الى حدّ أنّك عند كل خطوة ، كلّ حركة ، كلّ فكرة ، تفيضين وترمين على البشر النعمة الالهيّة المتجسّدة التي أنت أناؤها الأزلي .
ترافقني صورتك طوال اليوم ، كخلفيّة موسيقيّة ، تفيض على يومي رنّات وجمالا ، وكعطر ناعم جداً يعطرنا في كلّ لحظة ... "

وبما أنّ مريم أمّ جميع البشر ، بما فيهم الخطأة ، يطيب للأسقف هلدر أن يطيل الطلبات المريميّة ببضعة ابتهالات :

يا سيّدة جاحدي دينهم ، ياملكة الهراطقة ، يا أمّ البغايا ، يا خلاص الساخرين ، صلّي لأجلنا !
يا زهرة الخجولين ، يا شجاعة المتماثلين للشفاء ، يا رقاد الذين يعانون الأرق ، يا راحة الغارقين في الأوهام ، صلّي لأجلنا !

ويرى الأسقف الثلاث فضائل الالهيّة متجسّدة في مريم :

- الايمان : يتلخّص فيك كلّ سرّ من اسرار عقيدتنا : أنت بنت الآب السماوي وأم يسوع المسيح وزوجة الروح القدس .
- الرجاء : ماذا سوف يقع علينا لو تكن المحامية التي لديها هبة تسكين وتهدئة الحاكم ؟
- المحبّة : توازي ممتلئة نعمة ممتلئة محبّة .

يعهد بوحدة المسيحيّين الى أمّ الكنيسة قائلا : " يا أمّاه ، أنتِ التي رقّعت مرارا ثياب المسيح ، كنت تقومين بهذا الترقيع بمحبّة عظيمة الى حدّ أنّ معالمها كانت تعفو في أعين الملائكة أنفسهم ، اجمعي قطع قميص ابنك وأصلحي ، يا سيّدتنا ، الثوب الرمزيّ الذي نسجتيه يوما ما بيديك . "

بتقواه المريميّة ، ينسجم الأسقف كمارة مع شعبه قائلا : " في أمريكا اللاتينيّة

لا مساس بمريم ، حتّى الذين يشكّون فى ايمانهم أو يقرّون بأنّهم ملحدون ، يُكرمون مريم حقًّا : انّ البرازيليّين يخلطون بين العذراء مريم و(ييمانخة) الهة البحر . عندما أرى يوم ٨ ديسمبر ، أتخيّل أنّ ثلثى الجماهير الجرّارة التى تتجمّع لعيد الحبل بلا دنس تفكّر في الهة البحر : وهذا خلط بين ديانة افريقيّة معروفة والمسيحيّة . ولكنّ العذراء جديرة بأن تعرف أبناءها . " ويفسّر هذا قائلا :" أحيانا ، يقرع زوّار باب منزلى منادين : الأسقف هلدة ! الأسقف هبية !... بكلّ أنواع الأسامى . فليس غلطة الشعب اذا كان اسمى معقّدا بالنسبة اليه . فهل سأقول : " ليس هو هنا ، لا يوجد هنا الأسقف هلدرة ولا الأسقف هبية ؟ " كلاّ ، لا أحتاج الى أن يُلفظ اسمى بمنتهى الصواب حتّى أعرف أنّ الشعب يدعوننى أنا . ولذا ، فبالنسبة الى أمّ الله ، التى هى أمّ البشر ، أمّ الخطأة ، لا توجد مشكلة اذا شعرت بنوع من الخلط بين اسمها واسم الهة البحر ! ...

أمام الموت

" يا قدّيسة مريم ، صلّى لأجلنا ... فى ساعة موتنا . " كم من مرّة وجّه الأسقف كمارة هذه الصلاة الى مريم ! كان يقول : " لا أعرف متى أرحل من هذا العالم ، ولكنّ ما أطلبه من الربّ هو أن أستخدم الوقت الطويل أو القصير الذى يخصّصه لى استخداما حسنا . ليست الحياة مسألة طول أو قصر وقت . انّى أفكّر فى الوردة ، هى لا تحيا حقيقة الاّ يوما ، ومع ذلك لا أحد يقول انّها فاشلة ، لأنّها تحقّق فى يوم واحد كمال هبات الربّ . خلقت لتكون جميلة ، لتفتننا ، لتعطى عطوا زمن يوم . "

يقول أيضا : " الموت لا يشغلنى . لا أظنّ أنّى بدون خطيئة ، ولكنّ شعارى هو : " بين يديك يا ربّ " . أجل ، بين يدى الآب أتمكّن من أن أستسلم بثقة تامّة . فالله ، الذى يعرفنى أكثر ممّا أعرف نفسى ، يعلم جيّدا أنّ فى ضعفا أكثر من خبث ، ورحمته أعظم من أضعافى بلا نهاية . وهذا يعطينى رجاء عظيما . "

" متى سيأتى هذا الأخ الذى نسمّيه الموت ؟ الآن كلّ شىء يسير سيرا حسنا : لا يزال ممكنا لى أن أتحمّل سباق هذا العدو الطويل الذى هو أسفارى ، ولكنّ قلبى يقول لى إنّه حان وقت الاستعداد لهذا النزول الأخير من سفينة الحياة . أفكّر فى كريستوف كولومب / Christophe Colomb ، فى فرحه عندما لمح علامات الأرض الأولى . هكذا تعطى الشيخوخة رجاء الاقتراب بعد قليل من أرض الميعاد . "

الفصل الثانى عشر

علامات رجاء

يقول جان طولا / Jean Toulat ، (صاحب سيرة هلدر كمارة هذه التى نقلتها إلى اللغة العربيّة بتصرّف) " كان لى حديث أخير مع الأسقف كمارة فى شقته ، تحت ظلّ كنيسة داس فرونتيراس :

قال : " انّ معاصرينا مشغولون كثيرا بدنوّ فترة ألفيّة جديدة ، ولكن ، بالنسبة الينا ، نحن معشر المسيحيّين ، انّ التحدّى أعظم من هذا الانشغال ، لأنّ هذه الفترة الألفيّة الجديدة هى الثالثة من العصر المسيحى . فمنذ عشرين جيلا ، ماذا عملنا بتعاليم المسيح وأمثاله ؟ احدى الملاحظات الحزينة للغاية هى أنّ الفئة الصغيرة من البلاد ، التى لا تزال تغتنى أكثر فأكثر والتى تسيطر على القسم الأكبر من البشريّة ، تتكوّن من بلاد مسيحيّة ، على الأقل بالنسبة الى أصلها . ويكرّر قسم العالم الفقير المسيحى المظالم ذاتها التى ارتكبتها مسيحيّة أوربّا ومسيحيّة أمريكا الشماليّة . "

ومع ذلك ، ورغم هذا الظلام ، يبصر الأسقف هلدر علامات رجاء : أربعا بوجه خاصّ :

يقول : " أينما أذهب ، فى أىّ بلد ، أقابل أناسا لهم ، أبعد من عرقهم ، من دينهم ، ومن مذهبيتّهم ، قاسم مشترك هو عطش للعدالة وجوع للسلام ، يدفعانهم الى ارادة بناء عالم يتميّز باخاء أعظم ، لأنّهم يشعرون بأنّهم أعضاء أسرة بشريّة . تطيب لى الأغنية البرازيليّة التى تقول : " عندما يحلم المرء وحده ، ليس حلمه الأ حلما بعد ، ولكن عندما تحلم مجموعة من الناس معا ، فحلمها منذ الآن حقيقة . " " النظرة الخياليّة المشتركة ، هذه هى محرك التاريخ . "

انّ تقارب الأفكار هذا ، ينسبه الأسقف كمارة الى الروح الالهى " الذى لا يؤثّر فى الناس بشدّة الأ حينما يكون العالم فى مأزق حرج . "

ويرى الأسقف علامة رجاء أخرى ، وهى، فى العالم ، نموّ العمل الملهم بالمسالمة ، وهو ، فى نظره ، فى صلب الانجيل . فانّه رأى جائزة نوبل للسلام تتوّج رؤوس شخصيّات تعتز بالسلام ، مثل مارتن لوثر كنج والارلنديّتين بتـــى وليمز / Betty Williams وميريد كوريجان / et Meraid Korrigan وأدولفو بيريز اسكيفيل والمطران دسموند توتو وليش فاليزة . وقد أعلن هـذا الأخيـر قائلا : " سوف تكون المسالمة سلاح القرن الواحد والعشرين . " وهناك غير مؤمنين يتّجهون أيضا نحو المسالمة ، مثل صديقه ليونيد بليوشتش الذى ، بعدما أطلق سراحه المستشفى الخاصّ ، المتخصّص فى طبّ الأمراض النفسانيّة ، أعلن حال وصوله الى فرنسا : " ان النضالات العنيفة عقيمة وتولّد الاحكام الاستبداديّة الدمويّة ، سواء من اليسار أو من اليمين . يميل أملى نحو كفاح مسالم وهادىء . أجل ، انّ أحداثَ الشيلى تؤدّى الى الاظهار أنّ الكفاح المسالم محال حقيقة ، ولكنّى أصرّ على أملى فى كفاح مسالم . "

التجدّد الروحى

وفى نظر الأسقف كمارة ، انّ الرجاء هو أيضا فى هذا التجدّد الروحى الذى تحقّقت احدى تظاهراته الأكثر وضوحا فى حركة هبات الروح القدس . وهذه هى العلامة الثالثة .

يقول الأسقف : " كان الروح القدس بالنسبة الى كثير من المسيحيّين حقيقة بعيدة ، أقنوما لعب دورا فى الماضى : فى الخلق وفى العنصرة . وها هو الله يباشر استخدام تجدّد هبات الروح القدس ليذكّرنا بحضور الروح وعمله الدائم في الكنيسة وفى العالم . "

هذه الحركة هى اذن فرصة طيّبة للكنيسة وللعالم . ولكن ، على شرط أن نتجنّب بعض أخطار ، مثل أن نسرّ بهبات الروح لنتقوقع على ذواتنا وننسى أنّ الكفاح والمشاهدة الروحيّة مرتبطان معا . وعليه ، يتوجّه الأسقف كمارة فى مؤلّف حقّقه مع صديقه الكردينال سوينانس ، يقول فيه رأسا الى " اخوانه المولعين بهبات الروح " : " أدعوكم الى أن تعيشوا تحت قيادة الروح وفى نفس الوقت أن تتركوه يقودكم الى قلب العالم ، الى صلب مشاكل البشر . الهبات لا شىء ان لم تكن فى خدمة المحبّة الأخويّة . لابدّ من الربط بين الصلاة والعمل . "

" ساعدوا المقتنعين بأنّ حالة الاخوة المظلومين ، المرهقين ، بشعة إلى حدّ أنّه لابدّ من أن يسمح لهم فورا بأن يحيوا فى أوضاع انسانيّة قبلما يبشّرون بالانجيل . فالتبشير والانسانيّة يسيران على قدم المساواة .. "

" أنتم الذين يحبّون الصلاة ، ظلّوا يقظين ، حتّى لا تظهر الصلاة أبداً كبديل للعمل الرسولى والاجتماعى ، وحتّى لا يُنتقَد الذين ، دوماً ينسون الأبديّة ، يذكّرون أنّ الأبديّة تبدأ هنا والآن . " " استندوا الى التجدّد فى الروح لتساعدوا الكنيسة على أن تتخلّص من التجارب الانتصاريّة وأن تصبح دائماً حضوراً حيّاً للمسيح فى خدمة البشر ومجد الله .

الأديان والسلام

والدافع الرابع إلى الرجاء هو النزعة إلى توحيد الكنائس ، المتّسع إلى جميع الأديان فى خدمة السلام . فقد ظهرت بوضوح يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٨٦ فى " قمّة " أسيزى حيث ، رداً على دعوة البابا بولس الثانى ، صلّى جنبا الى جنب الناطقون بلسان كبار العقائد فى العالم ، ممثّلين ثلاثة مليارات من المؤمنين ، أعنى أغلبيّة الانسانيّة . وهم يكوّنون رأس مال هائل من الأخوّة ، بما أنّ قوانين ايمانهم المختلفة تعتبر سائر الناس الآخرين كخلائق الله . قد لاحظنا بغتة أنّنا نحلم مع الأسقف هلدر ونقول : " لو كان جميع المؤمنين يحيون ايمانهم ولو ارادوا أن يأخذوا بأيد بعضهم البعض لحقّقوا قوة وسلام ليس بعدهما قوّة . "

منذ سنة ١٩٦٨ أنشىء فى نيودلهى / New Delhi مؤتمر الأديان العالمى للسلام . ومنذئذ عُقدت أربع جلسات كاملة . أثناء الجلسة الأخيرة ، فى نايروبى / Nairobi ، فى سنة ١٩٨٥ ، تناول الستّ مائة مشترك فى الجلسة ، المنتمون الى ستّين بلدا ، مسائل زمننا الهامّة (النزاعات الاقليميّة ونزع السلاح والتنمية

وحقوق الانسان) وقرّروا : " يجب أن نحوّل الايمان والرجاء اللذين نحياهما الى عمل مليء بالقوة لصالح كرامة الانسان وسلام العالم . "

وكان الأسقف كمارة حاضرا بالطبع أثناء هذا النشاط . ذهب سنة ١٩٨٧ الى اليابان ليشترك فى لقاء آخر جمع رؤساء الأديان الكبيرة ، والآن يدير نظره نحو اجتماع المسيحيّين العالمى المزمع عقده فى سيول / Séoul فى سنة ١٩٩٠ ، الذى يرمى الى ثلاثة أهداف : العدالة والسلام وحماية الخلق . يريد أصحاب فكرة هذا الاجتماع أن يتخطّوا اللاهوت التقليدى الخاصّ " بالحرب العادلة " ، مقتنعين أنّه لابدّ من البحث عن ترسيخ نظام قانونى ، عالمى ، يستبعد الحربّ : حرب يمكنها فى العصر النووى أن تهدم عمل الخالق .

ازاء مثل هذا التهديد ، يبدى الأسقف كمارة شعوره : " لا يمكننى أتخيّل أنّ عالما خلقه اله هو محبّة وحرّره ابن الله هو محبّة وأثبته الروح القدس الذى هو محبّة ، قد يسمح الله أبدا بترك الكلمة الحاسمة للأنانيّة والبغض والموت . اذا استمع الله قديما ، فى زمن الفراعنة ، الى أنين شعبه ، ألا سوف يستمع اليوم الى صرخة البشريّة ؟ "

يحصل الأسقف هلدر كمارة على رجاء ثابت : سوف تبقى الكلمة الأخيرة للمحبّة الالهيّة .

الخاتمة

لا يزال الأسقف هلدر كمارة على قيد الحياة ، وقد تعدّى سنّ الثمانين بقليل .

رجع الى البرازيل ، ويعيش فى ريسيف التى كان رئيس أساقفتها سابقاً ، ولكن لعلّه ، بسبب كبر سنّه ، قد قدّم استقالته بعد الخامسة والستّين من عمره وهو الآن لا منصب له ولا أبرشيّة ولا عمل معيّن ، يحيا تحت رعاية الله ليس إلاّ ، بعيدا عن اضطهادات الحكّام نظرا لأنّه حبيب الجماهير الشعبيّة التى تقدّره كلّ التقدير .

ولكن ، فى الواقع ، إن الأسقف هلدر يعيش فى رجاء ضدّ كل رجاء ، لأنّ بلده لم يتغير حيث لا يزال ملاّك أثرياء يملكون آلاف مؤلفّة من الفدادين ويسخّرون أى يستغلّون فلاّحين هم أشبه بالعبيد منهم بالبشر الأحرار ، ولم تجد بعد قضيّة الملكيّة حلاً ولا تقدّما .

ولكنّ الأسقف هلدر ، اذ يبكى على حال بلده ويرى أنّ من خلفوه لم يقتدوا به بل جاءت أفكارهم وتصرّفاتهم معارضة لأفكاره وتصرّفاته ، قد فهم ان الله

سمح له بهذه المحنة القاسية ، وهى أن يشعر بفشل حياته ومجهوداته الجبّارة فى شيخوخته ، ويرى نفسه مكتوف اليدين وأولاده الفقراء والبسطاء لا يزالون فى بؤس ويأس .

لاشكّ فى أنّ الأسقف يعزّ وطنه البرازيل أكثر من أى وقت مضى ، وأنّه يتضرّع الى الله من أجله ، ولا ينسى أنّه تقدّس هو شخصيًا بموجب الصعوبات التى أحاطت به طويلا وتعلّم ألاّ يعيش لنفسه ، ولذا أراه الله أنّ قداسة عدد لا بأس به من مواطنينه نبتت من دم اخوانهم الشهداء .

مطبوعات الآباء اليسوعيين في مصر

* سلسلة « الايمان والحياة »

١ - سمير لبيب : المسيحي في العالم المعاصر - ١٩٧٦
٢ - روفائيل خزام اليسوعي : هل أنا حر ؟ - ١٩٧٦
٣ - فاضل سيداروس اليسوعي : حياة الصلاة وصلاة الحياة - ١٩٧٧
٤ - هنري بولاد اليسوعي : ولادة الموت - ١٩٧٧
٥ - فاضل سيداروس اليسوعي : المجتمع في ميزان الكنيسة - ١٩٧٩
٦ - أولفر برج - أوليڤييه اليسوعي ، روفائيل خزام اليسوعي ، فاضل سيداروس اليسوعي : علمنا أن نصلي - ١٩٨٥ - الطبعة الثانية : ١٩٩١
٧ - هنري بولاد اليسوعي : الانسان - ١٩٨٥
٨ - روفائيل خزام اليسوعي : من أجل حياة زوجية سعيدة - ١٩٨٧
٩ - هنري بولاد اليسوعي : أبعاد الحب - ١٩٨٩
١٠ - روفائيل خزام اليسوعي : هل لله مشيئة خاصة في حياتك ؟ - ١٩٩١
١١ - روفائيل خزام اليسوعي : صرخة الفقراء (هلدر كمارة) - ١٩٩٢

* سلسلة « الأسرار والحياة »

١ - فاضل سيداروس اليسوعي : مدخل إلي الأسرار - ١٩٨١
٢ - فاضل سيداروس اليسوعي : سر المصالحة - ١٩٨٢
٣ - فاضل سيداروس اليسوعي : سر الإفخارستيا - ١٩٨٩

* سلسلة « الروح والنفس »

١ - أولفر برج - أولفييه اليسوعي : ولادة الحياة الجديدة - ١٩٨٢

* كتب مترجمة

* الطريق الذي يؤدي الي الحياة : يوميات جابي - تعريب روفائيل خزام اليسوعي - ١٩٧٥
* سيراً نحو الحب (٣ أجزاء) تأليف الدكتور فرانسوا جوست - تعريب روفائيل خزام اليسوعي - ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ (نفد)
* من أنت يا إغناطيوس دي لويولا ؟ - تأليف چان كلود دوتيل اليسوعي - تعريب روفائيل خزام اليسوعي - ١٩٧٦
* سيراً نحو النجاح - تأليف ميشيل كواست - تعريب الأب لويس نصري - ١٩٨٠
* لماذا اخترت يسوع المسيح ؟ - تأليف برنار بريفو - تعريب روفائيل خزام اليسوعي - ١٩٨٠
* القديس إغناطيوس دي لويولا والرهبانية اليسوعية - تأليف ألان جيبارمو - تعريب الأب لويس نصري - ١٩٨٤

* منوعـات

Fadel Sidarouss s.j., Eglise Copte et Moderne - 2 Tomes - 1978

* روفائيل خزام اليسوعي : ما فيش فايدة - ١٩٧٨
* شارل جاليه اليسوعي : قصة يسوع - قصص يسوع (رسومات للأطفال في جزئين) - ١٩٨١
* روفائيل خزام اليسوعي : أضواء وظلال - ١٩٨٣

الفهرست

الصفحة

دار جالكسي للطباعة والنشر
٤١ شارع عبد الستار ياسين - الهرم - تليفون : ٨٥٨٥٨٧
رقم الإيداع بدار الكتب ٩٥٩٦ / ١٩٩١
I.S.B.N. 977-00-2508-9

سلسلة " الايمان والحياة "

تستهدف هذه السلسلة مساعدة المسيحيّين - ولا سيّما الشباب - على التفكير المسيحي في الارتباط الوثيق بين الايمان والحياة . فليس الايمان منفصلا عن واقع الحياة ولا الحياة عن الايمان ، انّما الانسان المسيحي وحدة شاملة ومتلاحمة ، يحيا حياته الايمانيّة في المجتمع البشري ، كما يحيا حياته الاجتماعيّة بنور ايمانه . هذه العلاقة المتجانسة والوحدة المتكاملة بين الايمان والحياة محور هذه السلسلة .

لجنة التأليف والنشر
ص . ب . ٧٣ ، الفجّالة - القاهرة

نبذة عن الكتاب

يتحدّث الكتاب عن رجل دين من رجال دين البرازيل في القرن العشرين واسمه هلدر كمارة . سمع صرخة البائسين والفقراء وأراد طوال حياته أن يدافع عنهم قدر استطاعته بطرق مسالمة ولكنّها قويّة وشديدة الالحاح . فصار صوت من ليس لهم صوت وأباً لمنبوذي المجتمع البرازيلي الغنيّ ومحامياً جبّاراً لضحايا السلطات الرسميّة ، التي كانت لا تعترف البتّة بحقوق المساكين ، فتعتقلهم وتعذّبهم وتقتلهم ... وهدّد هلدر كمارة مرارا بالقتل ، ونجا منه بفضل الله . فيا ليت مثله يساعدنا علي أن نفتح أعيننا وقلوبنا لصالح المحتاجين في زمننا وبلادنا !

